مجلة جامعة البعث

سلسلة العلوم التاريخية والجغرافية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة دورية

المجلد 44 . العدد 11

1443 هـ - 2022 م

الأستاذ الدكتور عبد الباسط الخطيب

رئيس جامعة البعث

المدير المسؤول عن المجلة

أ. د. ناصر سعد الدين	**رئيس هيئة التحرير**
أ. د. هايل الطالب	**رئيس التحرير**

مديرة مكتب مجلة جامعة البعث

بشرى مصطفى

د. محمد هلال	**عضو هيئة التحرير**
د. فهد شريباتي	**عضو هيئة التحرير**
د. معن سلامة	**عضو هيئة التحرير**
د. جمال العلي	**عضو هيئة التحرير**
د. عباد كاسوحة	**عضو هيئة التحرير**
د. محمود عامر	**عضو هيئة التحرير**
د. أحمد الحسن	**عضو هيئة التحرير**
د. سونيا عطية	**عضو هيئة التحرير**
د. ريم ديب	**عضو هيئة التحرير**
د. حسن مشرقي	**عضو هيئة التحرير**
د. هيثم حسن	**عضو هيئة التحرير**
د. نزار عبشي	**عضو هيئة التحرير**

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة، ويمكن للراغبين في طلبها الاتصال بالعنوان التالي:

رئيس تحرير مجلة جامعة البعث

سورية . حمص . جامعة البعث . الإدارة المركزية . ص . ب (77)

. هاتف / فاكس : 2138071 31 963 ++

. موقع الإنترنت : www.albaath-univ.edu.sy

. البريد الالكتروني : magazine@ albaath-univ.edu.sy

ISSN: 1022-467X

شروط النشر في مجلة جامعة البعث

الأوراق المطلوبة:

- 2 نسخة ورقية من البحث بدون اسم الباحث / الكلية / الجامعة) + CD / word من البحث منسق حسب شروط المجلة.
- طابع بحث علمي + طابع نقابة معلمين.
- **اذا كان الباحث طالب دراسات عليا:**

يجب إرفاق قرار تسجيل الدكتوراه / ماجستير + كتاب من الدكتور المشرف بموافقته على النشر في المجلة.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية:**

يجب إرفاق قرار المجلس المختص بإنجاز البحث أو قرار قسم بالموافقة على اعتماده حسب الحال.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية من خارج جامعة البعث :**

يجب إحضار كتاب من عمادة كليته تثبت أنه عضو بالهيئة التدريسية و على رأس عمله حتى تاريخه.

- **اذا كان الباحث عضواً في الهيئة الفنية :**

يجب إرفاق كتاب يحدد فيه مكان و زمان إجراء البحث ، وما يثبت صفته وأنه على رأس عمله.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (العلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية):**

عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1- مقدمة

2- هدف البحث

3- مواد وطرق البحث

4- النتائج ومناقشتها .

5- الاستنتاجات والتوصيات .

6- المراجع.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (الآداب – الاقتصاد– التربية – الحقوق – السياحة – التربية الموسيقية وجميع العلوم الإنسانية):**
- عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1. مقدمة.
2. مشكلة البحث وأهميته والجديد فيه.
3. أهداف البحث و أسئلته.
4. فرضيات البحث و حدوده.
5. مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية.
6. الإطار النظري و الدراسات السابقة.
7. منهج البحث و إجراءاته.
8. عرض البحث و المناقشة والتحليل
9. نتائج البحث.
10. مقترحات البحث إن وجدت.
11. قائمة المصادر والمراجع.

7- يجب اعتماد الإعدادات الآتية أثناء طباعة البحث على الكمبيوتر:

أ- قياس الورق 17.5×25 B5.

ب- هوامش الصفحة: أعلى 2.54- أسفل 2.54 – يمين 2.5- يسار 2.5 سم

ت- رأس الصفحة 1.6 / تذييل الصفحة 1.8

ث- نوع الخط وقياسه: العنوان . Monotype Koufi قياس 20

. كتابة النص Simplified Arabic قياس 13 عادي . العناوين الفرعية Simplified Arabic قياس 13 عريض.

ج . يجب مراعاة أن يكون قياس الصور والجداول المدرجة في البحث لا يتعدى 12سم.

8- في حال عدم إجراء البحث وفقاً لما ورد أعلاه من إشارات فإن البحث سيهمل ولا يرد البحث إلى صاحبه.

9- تقديم أي بحث للنشر في المجلة يدل ضمناً على عدم نشره في أي مكان آخر، وفي حال قبول البحث للنشر في مجلة جامعة البعث يجب عدم نشره في أي مجلة أخرى.

10- الناشر غير مسؤول عن محتوى ما ينشر من مادة الموضوعات التي تنشر في المجلة

11- تكتب المراجع ضمن النص على الشكل التالي: [1] ثم رقم الصفحة ويفضل استخدام التهميش الإلكتروني المعمول به في نظام وورد WORD حيث يشير الرقم إلى رقم المرجع الوارد في قائمة المراجع.

تكتب جميع المراجع باللغة الانكليزية (الأحرف الرومانية) وفق التالي:

آ . إذا كان المرجع أجنبياً:

الكنية بالأحرف الكبيرة . الحرف الأول من الاسم تتبعه فاصلة . سنة النشر . وتتبعها معترضة (–) عنوان الكتاب ويوضع تحته خط وتتبعه نقطة . دار النشر وتتبعها فاصلة . الطبعة (ثانية . ثالثة) . بلد النشر وتتبعها فاصلة . عدد صفحات الكتاب وتتبعها نقطة.

وفيما يلي مثال على ذلك:

–MAVRODEANUS, R1986– **Flame Spectroscopy**. Willy, New York, 373p.

ب . إذا كان المرجع بحثاً منشوراً في مجلة باللغة الأجنبية:

. بعد الكنية والاسم وسنة النشر يضاف عنوان البحث وتتبعه فاصلة، اسم المجلد ويوضع تحته خط وتتبعه فاصلة . المجلد والعدد (كتابة مختزلة) وبعدها فاصلة . أرقام الصفحات الخاصة بالبحث ضمن المجلة.

مثال على ذلك:

BUSSE,E 1980 Organic Brain Diseases **Clinical Psychiatry News** , Vol. 4. 20 – 60

ج. إذا كان المرجع أو البحث منشوراً باللغة العربية فيجب تحويله إلى اللغة الإنكليزية و التقيد

بالبنود (أ و ب) ويكتب في نهاية المراجع العربية: (المراجع In Arabic)

رسوم النشر في مجلة جامعة البعث

1. **دفع رسم نشر (20000) ل.س عشرون ألف ليرة سورية عن كل بحث لكل باحث يريد نشره في مجلة جامعة البعث.**
2. **دفع رسم نشر (50000) ل.س خمسون الف ليرة سورية عن كل بحث للباحثين من الجامعة الخاصة والافتراضية .**
3. **دفع رسم نشر (200) مئتا دولار أمريكي فقط للباحثين من خارج القطر العربي السوري .**
4. **دفع مبلغ (3000) ل.س ثلاثة آلاف ليرة سورية رسم موافقة على النشر من كافة الباحثين.**

المحتوى

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحة
الأنثروبولوجيا كعلم النشأة والتطور	اعتدال الكفيري	38-11
المصلح العثماني مدحت باشا (1822-1884)	رشا كميل د. إلهام يوسف	72-39
دراسة ديموغرافيّة تحليلية لواقع مرض نقص المناعة البشرية/الإيدز في الجمهورية العربية السوريّة خلال الفترة (1987-2020)	سيلين شاهين د. مدى شريقي	122-73
الأمير بشير الشهابي الثالث (1840-1841)	صبا شعبان	154-123

الأنثروبولوجيا كعلم
النشأة والتطور

الباحثة: اعتدال جادالله الكفيري*

ماجستير في الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

الملخص

يحاول هذا البحث تقديم دراسة حول الأنثروبولوجيا بوصفها علماً أصبح يمتلك مقوماته الأساسية، من ناحية الموضوع والمنهج، فما هي الأنثروبولوجيا؟ ما هو منهجها؟ وما هو موضوعها؟ وما علاقتها بالفلسفة؟ ما علاقتها بالاستعمار؟ وهل استطاعت كعلم فعلاً دراسة الإنسان لخدمة الإنسان؟ فقد شغلت الأنثروبولوجيا الكثير من الفلاسفة منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا، رغم اختلاف معانيها ودلالتها عبر عصور نشأتها وتطورها، وكانت مدار جدل بين الكثير من الفلاسفة من جهة كونها جزءً من العلوم الإنسانية أم العلوم الطبيعية، أم هي علم خاص مستقل بذاته عنهما؟

سنحاول في هذا البحث الإجابة على تلك الأسئلة المطروحة وغيرها من الأسئلة التي ستظهر في سياق البحث

كلمات مفتاحيّة: أنثروبولوجيا، الإثنوغرافيا، الإثنولوجيا، الإنسان.

Anthropology as a science Origins and development

Etedal jadallah Al-kafiri*

* Researcher, Master of Philosophy, Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Philosophy

Abstract

This research attempts to present a study on anthropology as a science that has its basic components, in terms of subject and method, so what is anthropology? What is its method? And what is its topic? What is its relationship to philosophy? What does it have to do with colonialism? Was it, as a science, really able to study man to serve man? Anthropology has occupied many philosophers from ancient times to the present day, despite its different meanings and significance through the ages of its inception and development, and it was the subject of controversy among many philosophers as to whether it is part of the human sciences or the natural sciences, or is it a special science independent of them?

In this research, we will try to answer these questions and other questions that will appear in the course of the research.

Key words: Anthropology, Ethnography, Ethnology, The Human

المقدمة:

يشكل مفهوم الإنسان أحد أهم المرتكزات ـ إن لم يكن أهمها ـ الأساسية التي يستند إليها الخطاب الفلسفي، الذي يدعي الفهم الشامل له ولمختلف فعالياته في هذا الكون، فالإنسان كمفهوم أنثروبولوجي فرض نفسه كلغز يستدعي الحل في وسط الإشكاليات الفلسفية المتفرعة منذ القدم فكما أن فلاسفة العصور الماضية كانوا يوجهون أنظارهم نحو آفاق المستقبل كذلك فإن المفكرين المعاصرين يحاولون أن يضعوا تصوراتهم وتنبؤاتهم عن مصير الإنسان والحضارة البشرية، وهذا لتيقنهم بأنه المعنى الحقيقي للعالم والحياة التي يتشكل داخلها.

إن البحث في شؤون الإنسان والمجتمعات الإنسانية قديم قدم الإنسان، منذ وعى الإنسان وجوده وبدأ يسعى للتفاعل الإيجابي مع بيئته الطبيعية والاجتماعية، ولكن لا يمكن تحديد تاريخ نشأة واضح لهذا العلم إذا ما قارنا بينه وبين علم الاجتماع أو أي علم آخر، ومن هذا المنطلق نستطيع القول إن الأنثروبولوجيا علم حديث العهد.

1. مشكلة البحث

يطرح هذا البحث مشكلة أساسيّة في الفلسفة وفي كل العلوم الإنسانية، وهي هل استطاعت الأنثروبولوجيا أن تضع نفسها في السياق العلمي؟ وهل استطاعت فعلاً أن تعبّر عن موضوعها بشكل علمي وأن تطرح الحلول؟ وهل طورت أهدافها ومنهاجها أم بقيت على ما تأسست عليه إبان بدايات عصر التنوير؟ ومن ثم أين يظهر دور الاستعمار في نشوئها وما غايته؟

2. أهميّة البحث وأهدافه:

2.1.أهميّة البحث

تأتي أهميّة البحث من دراسة أحد أهم العلوم التي اتكأ عليها الاستعمار، ومن كونه أحد الدراسات القليلة في سورية التي تتناول مفهوم الأنثروبولوجيا وتعالجه تاريخياً وتتعقب

تطوره منذ اليونان إلى عصرنا الراهن. فما علاقة الأنثروبولوجيا بالاستعمار؟ وهل استطاع هذا العلم فعلاً دراسة الإنسان لخدمة الإنسان؟ سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها في سياق البحث.

2.2.أهداف البحث:

يهدف البحث إلى دراسة نشوء وتطور أحد أهم العلوم في العصور السابقة وعصرنا الحالي، وتحليل هذا التطور ومدى قدرة هذا العلم من امتلاك أدواته التي تنصب جميعها في دراسة هذا الكائن بوصفه إنساناً.

3. مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائيّة

- الإثنوغرافيا* Ethnography:

هي الإثنولوجيا الوصفية، أي ملاحظة وتسجيل المادة الثقافية من الميدان، وتعني...وصف أوجه النشاط الثقافي، ويعتقد دياس أن مصطلح إثنوغرافيا قد ظهر عام 1807م على يد كامبل ليعني وصف الشعوب، ويستخدم مصطلح الإثنوغرافيا في بعض الأحيان كبديل للإثنولوجيا.

- الإثنولوجيا* Ethnology:

هي علم الإنسان ككائن ثقافي... يعرفها كروبر بأنها علم الشعوب وثقافاتها، وتاريخ حياتها كجماعات، بصرف النظر عن درجة تقدمها.... ويعرفها هوبل بأنها ذلك القسم من الأنثروبولوجيا المختص بتحليل المادة الثقافية وتفسيرها تفسيراً منهجياً، ... وتعتبر الإثنولوجيا على خلاف الإثنوغرافيا علماً ذي نظرة مقارنة، وهي مطابقة في سماتها العريضة للأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية.

* أنظر هولتكرانس، إيكه، 1972م ـ قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ط1، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف ـ القاهرة، 15- 16

* أنظر المرجع السابق، ص18

- الأنثروبولوجيا Anthropology:

كمصطلح له معاني متعددة في تاريخ هذا العلم، وربما أهمها هو علم الإنسان، وسنأتي عليه تفصيلاً في القادم من هذا البحث.

4. الدراسات السابقة

هناك العديد من الدراسات السابقة التي تناولت الأنثروبولوجيا تاريخياً، لكن ما يميِّز دراستنا عن تلك الدراسات هو خصوصيَّتها؛ فهي تتناول وتتعقب أهم المفاصل التاريخية التي مرت فيها إلى أن وصلت إلى مرحلة العلم، حيث وجدنا أن بدايتها اتخذت الطابع الفلسفي، لكنها مع مرور العصور استقلت وأصبحت علماً بذاته، وهذا أرخى بثقله على قدرة الجيل الجديد من الأنثروبولوجيين من إعادة صياغة ونقد لتراث الآباء المؤسسين للأنثروبولوجيا، علماً أننا لم نتطرق بشكل واسع لعلاقتها بباقي العلوم، فهي استمدت واتكأت على جميع العلوم الإنسانية والطبيعية، مع التركيز على علاقة نشأتها بالحركة الاستعمارية التي بدأت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ومن ثم نشوء الاستشراق الذي خدم بشكل كبير التوسع الاستعماري، مع الإشارة إلى أن هناك دراسات شكلت عاملاً رئيسيَّاً في الكثير من المفاصل المهمَّة التي ينطوي عليها بحثنا، ونذكر منها ما يلي:

- كتاب (قصة الحضارة) للدكتور حسين فهيم، يتحدث فيه عن مجمل تاريخ الأنثروبولوجيا.
- كذلك كتاب (مدخل إلى علم الإنسان) للدكتور عيسى الشماس يتحدث فيه عن تاريخ الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالعلوم الأخرى.
- كذلك رسالة الماجستير التي أعدتها إيمان محمود عامر عبد الله في جامعة المنوفية في مصر وعنوانها (اسهامات مدرسة شيكاغو في الأنثروبولوجيا الحضرية)، تحدثت

فيها عن مدرسة شيكاغو التي ظهرت في أربعينيات القرن العشرين، ولكن للأسف لم نستطع الحصول على هذه الرسالة. هناك الكثير من الدراسات التي لا يسعنا هنا ذكرها، تقترب أو تبتعد عن بحثنا، لكن لا يوجد على حد علمنا بحث مستقل تناول نشوء الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالاستعمار كما تطرقنا إليه.

5. منهج البحث

إنه لمن الصعب على الباحث أن يضع للبحث منهجاً كاملاً ومنظماً، وانطلاقاً من ذلك حاولنا في هذا البحث استخدام منهج التحليل تارةً، والمنهج التاريخي تارةً أخرى، هادفين بذلك تتبع المفهوم ورصد تطوراته التاريخية، ووضع المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالبحث والملتبسة تحت عدسة التحليل، ومحاولين إعادة قراءتها وإنتاجها وبناءها ضمن إطار جديد.

6. الإنسان كموضوع للأنثروبولوجيا:

إن مصطلح الأنثروبولوجيا ، هو مصطلح إنكليزي Anthropology، مشتقّ من الأصل اليوناني Ανθρωπολόγία المكون من مقطعين : ἄνθρωπος أنثروبوس، Anthropos، ومعناه (الإنسان)، ولوجوس λόγος، Logos، ومعناه (علم)، وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ علم الإنسان أو علم دراسة الإنسان؛ أي العلم الذي يقوم بدراسة الإنسان في جميع تفاعلاته الإنسانية، وهنا سنجد أنه لا مناص لنا من إحالة هذا المصطلح إلى مجموعة من المقاربات التي نجد أنه لا بد منها، وسؤالنا الأساسي الذي ينبثق هنا هو: أليس أغلب العلوم الإنسانية هي علوم يكون الإنسان فيها هو الموضوع الرئيس، كعلم التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع؟ وهذا بحد ذاته ما يحيلنا إلى مشكلة أخرى هي ترجمة المصطلح والتي لا تشير بشكل واضح إلى طبيعة وموضوع هذا العلم، إلا أن أغلب المترجمين العرب والأنثروبولوجيين إن صح التعبير قد آثروا البقاء على الترجمة الحرفية

للمصطلح وذلك ربما لسهولة التعامل معه، أو ربما لعدم القدرة على إنتاج مصطلح يعطي المعنى الحقيقي المراد منه.

يُعرف لالاند في موسوعته الفلسفية الأنثروبولوجيا بأنها تأخذ عدة معاني عبر تاريخها: «معنى لاهوتي: فعل الكلام البشري على أمور إلهية. الإناسة الصحيحة والواقعية للحقائق التي لم يكن في الإمكان فهمها بكيفية أخرى. في الفلسفة المدرسية الجديدة الإناسة [تعني] درس المركب الإنساني في نطاق وحدته... بينما يرى كانط موضوع الإناسة بثلاث طرق: فهي بوصفها إناسة نظرية ... [تعني] معرفة الإنسان وملكاته بعامة؛ وبوصفها إناسة ذريعية، هي معرفة الإنسان المتطلع إلى ما يمكنه ضمان المهارة البشرية واطرادها؛ وبوصفها إناسة أخلاقية هي معرفة الإنسان التواق إلى ما يتعين عليه توليد الحكمة في الحياة، طبقاً لمبادئ ميتافيزيقا الأخلاق»[1].

وقد عرّفها إيكه هولتكرانس في قاموسه بأنها « تعني حرفياً علم الإنسان... وهي ذلك الفرع من دراسة الإنسان الذي ينظر إلى الإنسان من حيث علاقته بمنجزاته، مع ذلك فالأنثروبولوجيا تعني في معظم أجزاء أوربا: بيولوجيا الأجناس أو الأنثروبولوجيا الطبيعية... ويقول كروبر: الأنثروبولوجيا هي علم دراسة جماعات الناس وسلوكهم وإنتاجهم...وأصبحت منجزاتها...ميداناً للعلوم الإنسانية. وهذا على الرغم من أن الهدف والمنهج الأنثروبولوجي طبيعي حتى عند تطبيقه على المادة البشرية أو ما دون البشرية، ويُعرفها لينتون وهيرسكوفيتس بأنها دراسة الإنسان وأعماله.»[2]

لقد عبّر الوعي الإنساني الأول عن يقظته أمام ما يحيط به فهو وحده الذي يحاول أن يفهم و يعي و يفسر ما يحّيط به في هذا الكون، وضمن إطار مقولة (معرفة الذات أول مقدمة لتحقيقها)، نستطيع أن نقول بأن معظم الفلاسفة الذين جعلوا الإنسان محور

1. لالاند، أندريه، 2001م ـ موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، ط2، تعريب خليل خليل، منشورات عويدات ـ بيروت، ص74

2. هولتكرانس، إيكه، 1972م ـ قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ص49-50

الدراسة قد أكدوا على هذا النوع من المعرفة والتي ليست فقط موضوعاً مرتبطاً بالتأمل وحب الاستطلاع فحسب، بل هو وبدرجة كبيرة الواجب الجوهري للإنسان، وانطلاقاً من ذلك تتناول الأنثروبولوجيا في دراستها للإنسان جميع أبعاده الثقافية والحياتية والاجتماعية والنفسية والبيولوجية، فتدرسه بوصفه جزءً من عالم الحيوان، والذي يتميز عن باقي الحيوانات بقدرته على الإبداع وخلق ثقافته، لذلك يمكن القول إن موضوع هذا العلم دراسة الإنسان ومجمل أفعاله، أي كل ما أنجزه على الصعيدين المادي والفكري، أي الدراسة الشاملة للإنسان، فالأنثروبولوجيا تجمع بين طيات موضوعها كل من العلوم البيولوجية والعلوم الاجتماعية، فتركز مشكلاتها على الإنسان بوصفه عضواً في عالم الحيوان من جهة، وعلى سلوك الإنسان كعضو في مجتمع، من جهة أخرى.

إن صياغة الأنثروبولوجيا في العالم الغربي، تعددت بتعدد الدول الأوروبية، وأمريكا جزء من ذلك التعدد، فالبلدان الناطقة باللغة الإنكليزية، تطلق على علم الأنثروبولوجيا : (علم الإنسان وأعماله) بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالإنكليزية، على (دراسة الخصائص الجسمية للإنسان)، ومرد هذا الاختلاف إلى طبيعة علم الأنثروبولوجيا، أي يعني الأنثروبولوجيا الفيزيقية، وينظر إلى علمي الآثار واللغويات كفرعين منفصلين، بينما يستخدم الأمريكيون مصطلح (الإثنولوجيا أو الإثنوغرافيا) لوصف (الإثنوغرافيا الثقافية) وهي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة، والتي يطلق عليها البريطانيون (الأنثروبولوجيا لاجتماعية)، بينما علماء فرنسا يطلقون على هذا المصطلح، دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية، أي العضوية[1]

إذاً تدرس الأنثروبولوجيا الإنسان كما باقي العلوم الإنسانية إلا أن الأنثروبولوجيا تدرسه بوصفه جزءً من الطبيعة والمجتمع في آن واحد، على خلاف باقي العلوم التي تدرسه إما في ماضيه أو سلوكه أو علاقاته، إلخ، فالأنثروبولوجي يهتم بالتصورات الشكلية الأولى للإنسان وسلوكه بنفس درجة اهتمامه بأعماله المعاصرة، إذ يدرس كلاً

1. أنظر الشماس، عيسى، 2004م ـ مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق.، ص14-15 بتصرف

من التطور التراكمي للبشرية وتطور الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وصلتنا عنها أي سجلات أو بقايا، وهو بذلك قد يجمع الكثير من العلوم ويستعين بها.

7. الأنثروبولوجيا عند قدماء اليونان:

إن الأنثروبولوجي الأول عند الباحثين هو المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodotus لكونه أول من أرّخ عن الشعوب وعاداتها وتقاليدها، فإليه يعزى ظهور التاريخ في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي ظهر من خلال سرده التاريخي للحروب الفارسية، وقد وصف أحدهم رسالة هيرودوت (تاريخ هيرودوت) قائلاً: «هي معرفة حدود الحالة الإنسانية»[1]، وقد تخللت رسالته العديد من التوصيفات الدقيقة لعادات الشعوب، إضافة إلى مقارناته بينها، مثلاً بين الإغريق والليبيين، وبين عادات المصريين وحياتهم وباقي الشعوب، ولهذا شكلت توصيفاته ومنهجه القاعدة الأساسية لعلم الشعوب أو الأثنوغرافيا، والذي يشكل أيضاً قاعدة أساسية للأنثروبولوجيا.

وفي مجال آخر قد نجد أن آراء أرسطو في كتابه (أجزاء الحيوان)، والذي يصف فيه مقاربات بيولوجية تطورية للحيوان، كتفريق مهم عن تطور الإنسان، فهو يفرق بين الأجناس المرتبطة بجنس واحد وغير المرتبطة بجنس مشترك، فيقول: « فأما ما لم يكن له جنس مشترك فهو بيّنٌ أنه ينبغي أن يكون القول في كل واحدٍ مفرداً بذاته، مثل الإنسان»[2]، الأمر الذي يجعل من امتلاك الإنسان القدرة على تشكيل الدولة ـ المدينة، وإنشاء الحكومات، وهذا ما نجده في كتابه (السياسة)، وهنا لا بد لنا أن نؤكد على حالة عدم التوافق الظاهري بين الفلسفة وبين الأنثروبولوجيا من حيث التوجه، فالفلسفة كانت

1. روبرتس، جينيفر تي، 2014م ــ هيرودوت مقدمة قصيرة جداً، ترجمة خالد علي، مؤسسة هنداوي ــ المملكة المتحدة ، ص28

2 أرسطو، 1977م ـ أجزاء الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ـ الكويت، ، ص59

تنطلق مما ينبغي أن يكون، بينما منطلق الأنثروبولوجيا هو الواقع، أي ما هو كائن وقائم، علماً أنها في ذلك العصر كانت أكثر قرباً إلى ما نسميه في يومنا علم النفس .

8. الأنثروبولوجيا في العصر الوسيط وعصر النهضة:

عندما نتحدث عن العصر الوسيط فيما يتعلق بالفكر، فلن نجد ما يذكر من إسهامات عند الغرب، فقد كان الفكر الغربي في أردأ حالاته وفي تدني كبير نحو الارتباط بالحالة الغريزية بعيداً عن أي إنتاج فكري وعقلي، ولكن سنجد في المقابل عند العرب والمسلمين اسهامات ليست بالقليلة، فحتى نهاية القرن الرابع عشر قدم العلماء والفلاسفة العرب والمسلمين الكثير من الإبداعات في العلوم والفن والفلسفة، كياقوت الحموي والبيروني، وابن بطوطة، وأبو الهبة بركات، وابن الهيثم والخوارزمي وغيرهم الكثير، وسنذكر هنا ما قدمه السوسيولوجي ابن خلدون نظراً لأهميته البالغة في الدراسات الأنثروبولوجية، وخصوصاً في مقدمته الشهيرة.

يعد ابن خلدون من أوائل العلماء الذين شعروا بضرورة التفكير والتأمل حول ظاهرة المعرفة في المجتمع، وقد انطلق من فرضية :أن العلاقة بين المعرفة العلمية والمدنية علاقة موضوعية، وبّين أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة، ومرد ذلك أن الصناعات تزداد في المجتمعات؛ لتشبع حاجات أفرادها، فإن زادت عن حاجاتهم انصرف الناس لتعلم العلوم والحرف والصنائع، فهو يقول في مقدمته: «فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه، صرف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش، ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية، فهو مقدم لضرورته على العلوم والصنائع، وهي متأخرة عن الضروري، وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة

الصنائع»[1]. كأنه يريد هنا أن يقول إن وعي الناس مرتبط بوجودهم الاجتماعي، إضافة لتناوله في مقدمته أيضاً، مسألة نشوء وقيام الدول وتطورها وأحوالها، وبلور نظرية (أطوار العمران) بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي، فهو القائل: «اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خُلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر، وحالات الدولة لا تعدو في الغالب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية...الطور الثاني: طور الاستبداد...الطور الثالث: طور الفراغ والدعة... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن...ولا يكون لها معه برءٌ إلى أن تنقرض»[2]. فعمر الدول عند ابن خلدون كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة وتنمو إلى الشباب والنضج والكمال، ثم تكبر وتهرم وتتلاشى إلى الزوال، وهذا بحد ذاته يعد إسهاماً كبيراً في نشوء علم الأنثروبولوجيا وإرساءً لقواعد فهم نشوء الحضارات واندثارها، لقد وضع ابن خلدون منهجاً واضحاً لدراسة المجتمعات البشرية قبل الكثير من العلماء الغربيين، «لذلك فإن بعض الكتاب العرب يرون في ابن خلدون هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع بينما يجد البعض الآخر وخاصة الأنثروبولوجيين البريطانيين في مقدمة ابن خلدون بعض موضوعات ومناهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية»[3]، ونحن لا نغالي إن قلنا أنه أول الأنثروبولوجيين العرب الذي قدم شروحات مستفيضة عن أحوال الشعوب وثقافاتها.

1. ابن خلدون، 1978م ــ من مقدمة ابن خلدون، تحقيق سهيل عثمان ومحمد درويش، منشورات وزارة الثقافة ــ دمشق، ص352
2. ابن خلدون، 2004م ــ مقدمة ابن خلدون، ج1، ط1، تحقيق عبدالله الدرويش، دار يعرب ــ دمشق، ص343+344
3. فهيم، حسين، 1986م ــ قصة الأنثروبولوجيا، ضمن سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون ــ الكويت، ص52

أما إذا دخلنا إلى عصر النهضة، أي نهاية القرن الرابع عشر، حيث بدأت الإرهاصات الأولى لنشوء علم الأنثروبولوجيا، فالأوروبيين قد بدأوا بدراسة النتاج اليوناني والعربي فيما يتعلق بجميع العلوم، مما بلور لديهم منهجاً علمياً تجريبياً، درسوا من خلاله الظواهر الطبيعية والإنسانية، وهذا سيتضح أكثر في القرن السابع عشر عصر التنوير، وقد عبر عن ذلك حسين فهيم في كتابه (قصة الأنثروبولوجيا) قائلاً: « ومن الظواهر الأخرى التي تميز بها عصر النهضة، والتي كان لها تأثير على توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وهي أن المفكّرين قد اتفقوا جميعهم، بالرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية»[1]، لقد حصرت الكنيسة كل المعرفة لها فمنها ومن خلالها فقط يتم إنتاج العلم، ولا يخفى على أحد دور الكنيسة في موت والتنكيل بالكثير من العلماء والفلاسفة، أمثال غاليليو وكبلر وقبلهم كوبرنيكوس الذي اكتشف أن الأرض تدور حول الشمس، على عكس ما كان شائعاً ومؤيداً من الكنيسة، حيث كانت الأرض هي الثابتة والشمس تدور حولها، وبذلك أخرج من يد الكنيسة سلطة المعرفة.

وهذا بدوره أدى إلى ظهور المنهج التجريبي والرياضي على يد فرنسيس بيكون ورينه ديكارت وجون لوك وإسحاق نيوتن وغيرهم، فتبلورت معهم مفاهيم جديدة حول الإنسان الذي غدا جزءً من الطبيعة، وتتم دراسته بوصفه ظاهرة طبيعية لها قوانينها التي تحدد تطوره ونموه، وهنا نستطيع القول إن هذه الإنجازات قد شكلت المقدمات والمنطلقات الضرورية والنظرية لنشوء الأنثروبولوجيا بوصفها علماً.

هذا وقد كان للرحالة الأوروبيين دوراً مهماً في تنشيط الخيال والتفكير الأوروبي حول شعوب ومناطق وحضارات لم تكن يوماً في حسبانهم، وهنا نذكر رحلات المستكشفين

1. المرجع السابق، ص68

أمثال كريستوف كولومبوس(1451–1506) وفرناندو ماجلان (1480–1521) ومكتشف أمريكا أمريكو فيسبوتشي (1454–1512) الذي أعطى انطباعاً سيئاً عن السكان الأصليين بوصفهم بدائيين وهمج ويمثلون الشر والإلحاد وأكلة لحوم البشر.

لقد شكلت الأوصاف والانطباعات التي ساقها الرحالة عن الهنود سكان أمريكا الأصليين أزمة فكرية في أوروبا، فقد كان الفكر السائد مرتبط بالكتاب المقدس ارتباطاً وثيقاً، وهذا الأمر شكل معضلة فيما بعد لاهوتيّة وفلسفيّة وقيميّة، فالكتاب المقدس لم يذكر شيئاً عن تلك الأرض المكتشفة ولا عن سكانها، ومن ثم كيف يمكن التعامل معهم وقد جاءت إليهم أوصافهم بأنهم بشر لكنهم لا يمارسون ما يعتقده الأوروبيون جزءً من الحالة الإنسانية، «لقد افترض الفلاسفة خلال العصور الوسطى أن الله خلق العالم مرة واحدة للأبد ومنح سكانه طبائعهم الخاصة التي احتفظوا بها من يومها...[فـ] هل الهنود يمثلون مرحلة مبكرة من تطور البشرية. إن هذا تباعاً يؤدي إلى تصورات غير ناضجة عن تقدم البشرية وتطورها، حيث يعلن عن خروج جذري على النظرة الكلية للعالم خلال العصور الوسطى»[1] وهذا الخروج والبحث عن شروط التطور والتقدم الذي لا يمكن أن يحدث خارج نطاق النتاج والنشاط الذي تقوم به البشرية، وهذا بحد ذاته شكل الفكرة الأكثر ثباتاً في تاريخ الأنثروبولوجيا وهي «أن الناس يشكلون مصائرهم الخاصة»[2]

9. الأنثروبولوجيا في عصر التنوير:

لقد استطاع المفكر السياسي صاحب كتاب (روح الشرائع) دي مونتسكيو (1689–1755) أن يقوم بالربط الوظيفي بين القوانين والشرائع وبين البيئة والعادات السائدة في المجتمعات، وكان لذلك أثرٌ كبير في الأوساط الأنثروبولوجية، وهذا أدى إلى توسيع دائرة

1. إريكسن، توماس، 2014م ـ تاريخ الأنثروبولوجيا، ترجمة عبده الريس، المركز القومي للترجمة ـ القاهرة، ص21

2. المرجع السابق نفسه

الترابطات وخاصة عند الأنثروبولوجيين الإنجليز الذي ذهبوا في اتجاه ربط النظم السياسية بالحالة العامة للحضارات ومدى تأثير الحالة المناخية على الحالة الثقافية.

وفي هذا السياق لا يمكن أن نتجاهل كتابات جان جاك روسو (1712– 1778) في القرن الثامن عشر، فقد اتخذت منحاً أكثر نضوجاً، فكل مؤرخي علم الأنثروبولوجيا، نظروا إلى دراساته الاثنوجرافية للشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) مقارنة مع المجتمعات الأوروبية، بوصفها دراسات تتميز بالتجرد والموضوعية، من خلال ما أظهره روسو من نقد لبعض القيم والجوانب الحياتية والثقافية في المجتمع الفرنسي، في مقابل اعجابه ببعض الجوانب الحياتية في المجتمعات الأخرى، فهو يقول في كتابه (في العقد الاجتماعي) تأسيساً لمفهوم الحرية: «إن حق الاستعباد، من أي زاوية نظرنا إلى الأمور، حق باطل ليس فحسب لأنه غير شرعي وإنما لأنه محال ولا يعني شيئاً. سواء أكان من إنسان لإنسان أم من فرد لشعب»[1]، ولذلك يعد روسو أحد أهم الفلاسفة الذين أعطوا المقدمات الأولى للفكر الأنثروبولوجي، دون أن ننسى كتابه (إميل) الذي حاول من خلاله رد التربية إلى الطبيعة، وهذا ربما مرده إلى تأثره بالحالة الطبيعية التي كانت تعيشها المجتمعات البدائية مقارنة بالمجتمعات الأوروبية، فبالنسبة إليه «كان البدائيون في الأساس على قدر من الأهمية باعتبارهم مقابلين لعصره هو، لقد كانوا رموزاً للإنسان العقلاني الذي سيولد من جديد في المجتمع المثالي الذي يحمله المستقبل. وهكذا كان الإنسان إما حراً وعقلانياً أو غير حر وفاسد»[2] .

إن الإسهامات التي ظهرت في عصر التنوير تمتلك قيمتها بوصفها الدافع الأساسي الذي أدى إلى نشوء ذلك العلم، ولكن ذلك لم يكن واضحاً بشكل كبير فقد بقيت المعرفة غير مستقرة، فهل هي ذاتية أم موضوعية؟ وهذا بذاته كان مسار جدل فلسفي كبير في

1. روسو، جان جاك، د. ت ـ في العقد الاجتماعي، ترجمة ذوقان قرقوط، دار القلم ـ بيروت، ص45

2 إريكسن، توماس، 2014م ـ تاريخ الأنثروبولوجيا، ص31

عصر التنوير، إن لم نقل أنه حجر الزاوية في تحديد نمط التفكير العام، فالمعرفة والحقيقة تتأسس عند الفيلسوف الألماني كانط «من خلال ارتباط الأسئلة الكانطية الثلاث (ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا يمكنني أن أعمل؟ ماذا يمكنني أن آمل؟) بالسؤال الذي يجمع هذه الأسئلة، وهو: ما الإنسان؟ ...وهذه المشكلات الثلاث ستحدد لنا كيف صاغ كانط مفهوم الحقيقة بين ما يعرفه العقل، وبين ما لا يعرفه»[1]، وهذا يعني أن الإنسان هو المآل الأخير لكل شيء، علاوة على ذلك فإن كانط لم « يكن يثق بعلم النفس، وعلى اعتبار أنه [أي كانط] أمبريقي*، فإن دراسة الإنسان لا بد أن تتم من خلال الأنثروبولوجيا»[2]، لقد كان المنطلق المعرفي عند كانط هو الفرد والذات بوصفها النقطة الثابتة التي يدور حولها العالم من جهة، وهي أيضاً تتشكل وفق عملية معرفية من جهة أخرى، بينما نجد في مقلب آخر عند هيجل (1770–1831) كيف تشكلت المعرفة والحقيقة في قالب جماعي حيث إن الذات أو الفرد لا يعيش إلا بحالة تشاركية تواصلية مع الآخرين، وليس هو إلا نتاج ذلك المجتمع.

وبذلك فقد تبلور الفكر الألماني حول فكرة التفوق الجماعي للأمة الألمانية متأثراً في ذلك بالنزعة القومية، التي برزت في منتصف القرن الثامن عشر، وهذا أدى لفكرة أن أن الشعب الألماني هو الشعب الأنقى والأمثل، وهذا ما سنجد نتائجه ماثلة بشكل قوي في النصف الأول من القرن العشرين، باندلاع الحرب العالمية الثانية.

1 علي، حسان، 2021م ـــ الميتافيزيقا بين كانط وهيدغر، رسالة دكتوراه، جامعة تشرين ـــ اللاذقية، ص61

* أمبريقي empiric، وهي تعني تجريبي، ولكن كلمة أمبريق كما يستخدمها كانط تعني أعم من التجريب فهي تشمل كل ما هو معطى عن طريق الحساسية، أما التجربة فهي تقتصر على ما هو صادق موضوعياً. أنظر تقديم الترجمة العربية لكتاب كانط (نقد العقل المحض) ترجمة موسى وهبي، ص11 ، بينما يترجمها غانم هنا في ترجمته لذات الكتاب بالتجريبي.

2. KANT, IMMANUEL, 1974 -Anthropology from a pragmatic point of view, Trans: MARY J. GREGOR, Martinus Nijhoff, The Hague- Netherlands, translators introduction, xv

إلا أن هذا الاتجاه في الدراسات الأنثروبولوجية، قد واجه الكثير من الانتقادات في بداية القرن العشرين، حيث برزت فكرة أنّه لا «يجوز أن تتّخذ اللغة كأساس أو دليل على الانتماء إلى أصل سلالي واحد، وأن العلاقة بين الجنس البشري واللغة، لا يجوز أن تكون أساساً لتقسيم الشعوب الإنسانية إلى سلالات متمايزة»[1]. وقد استطاع الفكر الأنثروبولوجي القائم على الدراسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى، وعلى المشاهدة الواقعية، من دحضه ونقضه وتبيان تهافته.

10. الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر:

ربما نستطيع القول أن من أكثر محددات القرن التاسع عشر التي أثرت في الفكر الأنثروبولوجي هي دخول القرن ومازالت تأثيرات الثورة الفرنسية (1789– 1799) الفكرية والسياسية في أوجها، وكذلك الثورة الصناعية التي بدأت في نهاية القرن الثامن عشر، وما صحب ذلك من ثورة فكرية وعلمية وثقافية، وهذا انعكس على الشارع الأوروبي ازدهاراً اقتصادياً، فالثورة الصناعية نقلت أوروبا إلى عصر الآلة والتصنيع، وهذا بدوره أدى إلى ازدهار تجاري فتح الباب واسعاً لظهور الرأسمالية، ومن ثم اتسعت الحاجة إلى التوسع خارج الحدود، لاستقدام الموارد اللازمة للصناعة والتجارة وفتح أسواق جديدة لتصريف المنتجات، مما أعطى حركة الاستعمار دفعة قوية، لدرجة أن الأوربيين قد اعتقدوا «وهم يسيرون في زحفهم المظفر عبر القارات بأن الفضل في نجاحهم يرجع إلى تفوق أمتهم ودينهم وثقافتهم»[2].

علاوة على ذلك، أدت الحملات الاستعمارية إلى نضوج مفهوم الاستشراق، الذي كان متمحوراً حول دراسة الأديان، حيث امتلك مع ذلك المضمون مجموعة من الترابطات السياسية والثقافية، وبمعنى آخر فقد أعاد الاستعمار تشكيل مفهوم الاستشراق، بحيث أصبح أداة أكثر نضجاً بيده لخدمة مصالحه التوسعية، وهنا يشدد إدوارد سعيد على أن

1. فهيم، حسين، 1986م ـ قصة الأنثروبولوجيا، ص79
2. المرجع السابق، ص91

«الاقتصار على القول بأن الاستشراق تبرير منطقي للحكم الاستعماري معناه أن نتجاهل مدى تبرير الاستشراق للحكم الاستعماري وانطلاقه منذ البداية لا بعد أن حدث»[1]، لقد كان سعيد مدركاً لأهمية الاستشراق بالنسبة إلى الاستعمار، فقد «شعر بالرعب عندما أدرك أن التأثير الأكبر للاستشراق في العديد من علماء الأنثروبولوجيا كان تشجيع الاهتمام بشعرية الاستعمار أكثر من الاهتمام بسياسة الأنثروبولوجيا»[2]

ومن هنا تتأسس اللحظة الوجودية بين الاستعمار وبين الأنثروبولوجيا، حيث إننا نجد أن كلاً من أفكار الإمبريالية الاستعمارية المعاصرة، وأفكار الأنثروبولوجيا الحديثة متوافقتان في إطار الزمان من خلال كونهما تنتميان إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أما من جهة الإيديولوجيا، فمن خلال النزعة المركزية للدول الأوروبية التي تعتبر أن الشعوب الإفريقية والآسيوية هي شعوب متخلفة، وهذا انعكس بشكل واضح في أدبيات الأنثروبولوجيين بوصفها مجتمعات بدائية على عكس المجتمعات الأوروبية التي تبدو أكثر تحضراً، ويرى جيرار لكلرك في كتابه (الأنثروبولوجيا والاستعمار) نقلاً عن ريفيه «لا استعمار جيد دون إثنولوجيا محكمة... و لا يجوز أن يتم الاستعمار بالتجريب حين تساعده أضواء الملاحظة العلمية سلفاً على إتمامه وبمعدل نجاح كبير»[3].

إذن، يمكن لنا القول أن الاستشراق ولد كحاجة استعمارية تلبي طموحات المستعمر في معرفة ماذا يستعمر وماهي أفضل الطرق لبسط سيطرته على الشعوب، لذلك وكنتيجة لما سبق، فإن الاستشراق هو معرفة أنثروبولوجية للشرق تمهيداً لأفضل طرق

1. سعيد، إدوارد، 2006م ـ الاستشراق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ص96

2. ديركس، نيكوس، 2022م ـ إدوارد سعيد والأنثروبولوجيا، ترجمة وسيم سيفو، مجلة جسور ـ دمشق، العدد 27، ص173

3. لكلرك ،جيرار ، 1990م ـالأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدارسات ـ بيروت، ص107

السيطرة عليه، وواقع الشرق المتردي يثبت ذلك، حيث إن الاستعمار الثقافي أكثر سيطرة من الاستعمار العسكري.

وفي ظل هيمنة الحالة الاستعمارية وما أنتجته من عنصرية تحولت إلى أيديولوجيا منظمة منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، ظهر الأنثروبولوجي كباحث عالمي يعتمد في علمه على جمع بيانات دقيقة وواضحة عن الشعوب في كل العالم، وليس غريباً أن يأخذ كتاب (أصل الأنواع) لشارلز داروين (1809– 1881) هذا الصخب الفكري فقد جمع معلوماته من خلال الإبحار حول العالم في مدة لا تقل عن خمس سنوات، وعقب ذلك أشهر مؤيدي داروين وهو عالم الاجتماع هربرت سبنسر (1820–1903) الذي أسس الداروينية الاجتماعية، وبذلك تتأسس الأنثروبولوجيا بوصفها فرعاً أكاديمياً، يختلف عن علم الاجتماع، فعلم الاجتماع كان نتاج التغيرات الحاصلة ضمن العلاقات الاجتماعية التي أفرزتها الثورة الصناعية، فهجرة الريف إلى المدن وبكثرة، أرخى ثقله على الحالة الاجتماعية في المدن وكذلك في الريف، الأمر الذي أدى إلى نشوء طبقات جديدة في المجتمع الأوروبي لا بد من معالجة مشاكلها، بينما ظهرت الأنثروبولوجيا من رحم الحالة الاستعمارية، بمعنى أنها التطور الفكري للاستعمار الموجه نحو المجتمعات المستهدفة.

إذن، في ظل هذه التحولات بدأنا نلتمس بدايات نشوء علم مستقل بذاته، بعد منتصف القرن التاسع عشر، حيث نجد أنه تم تعيين أول رئيس لقسم الأنثروبولوجيا بجامعة كولومبيا عام 1880 وهو ألماني المولد وأمريكي الجنسية فرانز بواس(1858–1942)، فيما عُين أول أستاذ للأنثروبولوجيا في جامعة أوكسفورد عام 1884 وهو الإنكليزي إدوارد برنت تايلور (1832–1917) وأهم أبحاثه كتابه (أبحاث في التاريخ القديم للجنس البشري) عام 1965م، وكتابه (الحضارة البدائية) عام 1871م، وفي عام 1887م عُين الطبيب الأمريكي دانيال غاريسون برينتون (1837–1899) أول أستاذ للأنثروبولوجيا في جامعة بنسلفانيا، ونذكر أيضاً ممن لمع نجمهم في فضاء الأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر ، أمثال الإنكليزي جون فيرغوسن ماكلينان

(1827–1881)، ألفرد كورت هيدن(1855–1940) والذي عُين أستاذاً بجامعة كمبردج عام 1900م، وكذلك ألفرد ريدكليف براون(1881– 1955) ومن أهم مؤلفاته كتابه (المنهج في الأنثروبولوجيا) الذي نُشر عام 1958م، والقائمة تطول ممن قدموا أعمالاً بحثية وميدانية أدت إلى إثراء مسار الأنثروبولوجيا الذي سنلتمس سماته في القرن العشرين، فما يميز هذه المرحلة من تطور الأنثروبولوجيا هو تعدد الدراسات والأبحاث المستفيضة عن الشعوب، إضافة إلى صدور العديد من الجمعيات العلمية وما صحبها من مجلات تختص في مجال الأنثروبولوجيا، وهذا أدى بطبيعة الحال إلى تقبُل للأنثروبولوجيا كاختصاص أكاديمي يُعنى بتاريخية نشوء المجتمعات، ويهتم من ضمن ما يهتم بالتراث والفولكلور الشعبي للمجتمعات.

لا بد لنا من توضيح مسألة خاصة بالأنثروبولوجيا وهي أنها تكاد تكون العلم الوحيد الذي نشأ من خلال أبحاث مفكرين وعلماء لهم اختصاصات مختلفة إلى درجة التباين، وهذا الأمر ربما كان شيئاً إيجابياً بالنسبة إلى هذا التخصص الجديد، حيث مده بمزيج من الأطر الفكرية والدراسات الشاملة لكل ما هو متعلق بالإنسان، ولذلك فالباحث الأنثروبولوجي سيجد نفسه أمام هذا الكم الهائل من التقييمات والدراسات والكتابات التي ستنصب جميعها في نهر الأنثروبولوجيا، وربما سنجد أن أهم «النتائج الإيجابية للكتابات الأنثروبولوجية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو بلورة مفهوم الثقافة وطرحه كموضوع رئيس للإثنولوجيا»[1].

ومع دخول الأنثروبولوجيا مجال القرن العشرين، بأحداثه وتغيراته العلمية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، فلا يستطيع أي باحث أن يتجاهل أثر الحربين العالميتين على شعوب العالم، ففي خضم الحرب العالمية الثانية «دعي الأنثروبولوجيين لجعل معلوماتهم الخاصة نافعة لقضية الولايات المتحدة والحلفاء... ولما انتهت الحرب

1. فهيم، حسين، 1986م ـ قصة الأنثروبولوجيا، ص107

دعي الأنثروبولوجيين(حلالين للعُقد)»[1] ، ولكن رغم ذلك تعد بدايات القرن العشرين وحتى منتصفه فترة ازدهار لعلم الأنثروبولوجيا حيث أنها بدت أكثر نضجاً، ولم تتأثر كثيراً كدراسات بمجريات الحرب حيث طرأت عليها تغيرات جوهرية وجذرية في موضوعها ومنهج دراستها وذلك بعد عام 1945م، فنجدها قد ابتعدت عن الطرق النظرية وأخذت بالمنهج التطبيقي باعتباره أكثر علميةً، إضافة إلى تحديد علاقة التأثير والتأثّر بينها وبين منظومة العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى، فقد أضحت النظرة الشاملة أحد أهم مميزات المنهج الأنثروبولوجي، الذي عندما يريد دراسة أي موضوع، مهما كانت طبيعته وأهدافه، فإنه لا بد من دراسته دراسة كلية متكاملة، تحيط بمجمل أبعاده المختلفة، مع الأخذ بالحسبان تلك التفاعلات المتبادلة بين أبعاد الموضوع والجوانب الحياتية الأخرى في المجتمع، وهذا كله كان بفضل تلاميذ المؤسسين الأوائل، الذين وضعوا بصمتهم، فمثلاً في بريطانيا تم إرساء قواعد متينة لعلم الأنثروبولوجيا استمرت إلى فترة الأربعينيات بزعامة طلاب ريدكليف براون.

إلا أننا نستطيع القول إن أنثروبولوجيا القرن العشرين اختلفت اختلافاً جذرياً عن أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر، التي لكثرة الدراسات الميدانية أصبحت أكثر تطورية في فترة وجيزة، بينما وعلى عكس ذلك، فإنها في القرن العشرين تأثرت ولو بشكل نسبي بآثار الحرب، وما خلفته من أزمة على الصعيدين الفكري والإنساني، أدت إلى إعادة طرح السؤال الكانطي ولكن بشكل آخر، فبدلاً من السؤال عن ما هو الإنسان؟ عمد الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر (1889–1976) إلى تحويل السؤال المعرفي إلى سؤال وجودي متعلق بوجود الإنسان وهو: من هو الإنسان؟[2]، علاوة عن ظهور النزعة التشاؤمية حول مصير الإنسان، والتي انتشرت في فرنسا عل يد الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر

1. بيلتو، بيرتي ج، 2010م ـ دراسة الأنثروبولوجيا، ترجمة كاظم سعد الدين، ضمن سلسلة كتب عالم الحكمة، بيت الحكمة العراقي ـ بغداد، ص51+52

2. علي، حسان، 2021م ـ الميتافيزيقا بين كانط وهيدغر، ص168 بتصرف

(1905–1980) فيما ظهر تيار مناهض للتيار الوجودي في أمريكا على يد الفيلسوف جون ديوي (1859–1952) الذي دعى في كتابه (إعادة البناء في الفلسفة) إلى التفاؤل حول مصير الإنسانية، فالإنسان يمتلك من القدرات والإمكانات التي تجعله قادراً على تجاوز أزمته الكبرى، وبذلك يمكن القول أن نهاية الحرب العالمية الثانية تؤشر إلى «بداية تطورات جديدة في الأنثروبولوجيا»[1]

في ظل هذه الظروف التي مرت على الشعوب، وعدم قدرة الكنيسة في أوروبا على تمكين دور الإنسان بوصفه يمتلك قدرات يستطيع من خلالها الخروج من أزمته دون الرجوع إلى قوة خارجية، من هنا نفهم تراجع دور الدين بشكل واضح ومتزايد، ومحاولة الكنيسة رأب الصدع الذي أحدثته الثورة التكنولوجية في العالم، وبهذا الجو السائد كان للعلم الدور الكبير في تشكيل سمة القرن العشرين، مشكّلاً الدعامة الرئيسة للفكر، الأمر الذي انعكس بشكل كبير على الدراسات الأنثروبولوجية التي بدأت بتحديد موضوعها ومنهجها وأهدافها لتكون أكثر مواكبة لتطور العلم، وهذا الأمر تمت مواكبته بإحداث مراكز أكاديمية للدراسات الأنثروبولوجية، ففي الثلاثينيات من القرن العشرين مثلاً كان المركز موجوداً في بريطانيا ضمن كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ولكن فيما بعد بدأت تتوالى عمليات إنشاء المراكز البحثية إن كان في جامعة كولومبيا، ومن ثم في جامعة بيركلي (كاليفورنيا حالياً)، ثم شيكاغو، وهكذا بدأ انتشار المراكز الأكاديمية والتخصصات البحثية تنتشر بقوة، وبذلك نستطيع القول أن الجهود العلمية والفلسفية التي بذلت، قد جعلت من موضوع الأنثروبولوجيا أكثر تبلوراً بحيث أصبح بالإمكان التحدث عن علم قائم بذاته له منهجه المحدد وأهدافه الخاصة، وهذا الأمر أدى إلى استقلاله عن الفلسفات النظرية واقترابه أكثر من العلوم الطبيعية، فموضوعه هو الإنسان عامةً، ويهدف إلى فهم أو محاولة فهم ذلك الكائن من جميع نواحيه العضوية والثقافية والحضارية والاجتماعية، ولذلك، فالأنثروبولوجيا متداخلة أو تقع على التخوم بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية

1. بيلتو، بيرتي ج، 2010م ـــ دراسة الأنثروبولوجيا، ص53

وغايتها فهم ووضع صورة واضحة عن الإنسان من كل أبعاده، وهنا لا بد لنا من ذكر أهم علماء الأنثروبولوجيا، ومنهم ميشيل ليرس(1901- 1990)، وروجر كالوس(1913-1978)، ونذكر أيضاً أهم طلاب فرانز بواس وهما روث بندكت(1887-1948)، وصديقتها مارغريت ميد(1901-1978)، وكان لمارغريت ميد الدور الكبير بعد استاذها في عملية انشاء التخصص البحثي، حيث شغلت مقعده بعد وفاته، وكان لديها مراكز بحثية متعددة في نيويورك*.

إن بدء أفول شمس الآباء المؤسسين للأنثروبولوجيا، والنتائج التي آل إليها الوضع العام بعد انتهاء الحرب من تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية، وما عقب ذلك من حركات تحرر وطني وانحسار قوة الاستعمار ـ بالمعنى العسكري ـ أدى إلى نشوء مشكلات جديدة، فكان لزاماً على العلوم الاجتماعية محاولة فهم الواقع الجديد، وضمن هذه المتغيرات كان لا بد للأنثروبولوجيا من أن تعيد بناء مفاهيمها وأدواتها، وهنا ظهرت في الأنثروبولوجيا حركة نقدية شملت كل المراكز والهيئات البحثية في أوروبا وأمريكا، وقد تجلت هذه الحركة بولادة جيل جديد من الأنثروبولوجيين، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة المراجعة والتجديد للتراث الأنثروبولوجي، ونفض غبار كل ما كان متعلقاً بالحالة الاستعمارية، مما أدى إلى إعادة صياغة إشكالية الأنثروبولوجيا لتكون متلائمة مع عالم ما بعد الحداثة، وهذا ما شهدناه على مدى سبعينيات القرن العشرين، تأسيساً لرؤى جديدة تتسم بالنقد الذاتي لهذا التراث الهائل، وتقديم حلول مناسبة لإنسان ما بعد الحرب، وحل المشكلات التي يعانيها إنسان النصف الثاني من القرن العشرين، وربما الاقتراب أكثر لما سماه سارتر بمفهوم الالتزام والمسؤولية.

* أنظر إريكسن، توماس، 2014م ــ تاريخ الأنثروبولوجيا، ص113 وما بعدها

11. نتائج البحث:

- إن الأنثروبولوجيا جزء من العلوم الإنسانية؛ لأن موضوعها هو الإنسان، وهي جزء من العلوم الطبيعية، لأنها تدرس الإنسان بوصفه كائناً عضوياً.

- إن كل مرحلة من مراحل نشوء العلم تشكل جزءً لا يمكن فصله عن الكل، فكما رأينا لولا تاريخ الأنثروبولوجيا لما وصلنا إلى مرحلة استقلال العلم ونضوجه، ومرحلة النقد التي وجهها فيما بعد الأنثروبولوجيين الجدد لمجمل التراث والمنهج الذي كان سائداً، والذي ابتعد في مراحل متعددة عن خدمة موضوعه الأساس ألا وهو الإنسان.

- تهدف الأنثروبولوجيا إلى محاولة فهم الإنسان عن طريق دراسة مجموعة من الميادين العلمية، التي قد تكون مستقلة، إلا أنها قد تكون متصلة ببعضها، وفي هذا الصدد يمكن القول أن الأنثروبولوجيا كي تحقق هدفها وجب عليها أن تعرف كيف تكون على تخوم العلوم، فتأخذ من كل علم ما يفيدها لخدمة هذا الكائن بوصفه إنساناً، ومنهجها هو المنهج التركيبي المقارن الذي يعتمد على مجموعة من البيانات الميدانية والملاحظات والمشاهدات، ومقارنتها، لتشكيل صورة واضحة وفهم حقيقي، للعينات المستهدفة.

- لا يمكن الفصل بين نضوج الأنثروبولوجيا وبين متطلبات الاستعمار الحديث، فلولا الأنثروبولوجيا لما استطاع الاستعمار أن يحكم قبضته على الشعوب المستعمرة، ولولا الرحلات المسماة بالتبشيرية والرحلات الاستكشافية، لما فهم القادة مزاج وثقافة ومقدرات الشعوب المستهدفة لتكون بمثابة أرض الاختبار وسوق تصريف المنتجات، ونهب الثروات، ولذلك يمكننا أن نقول إن الأنثروبولوجيا بعد

منتصف القرن التاسع عشر كانت الذراع العلمية والتمهيدية والفكرية لسلطة الاستعمار.

- إن الاستشراق الذي نهض برعاية الاستعمار الغربي، كان جزءً من الدراسات الأنثروبولوجية المتجهة نحو الشرق.

12. المراجع المستخدمة:

12.1. المصادر والمراجع العربيّة:

1. أرسطو، 1977م ــ أجزاء الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ــ الكويت، 279 صفحة
2. إريكسن، توماس، 2014م ــ تاريخ الأنثروبولوجيا، ترجمة عبده الريس، المركز القومي للترجمة ــ القاهرة، 327 صفحة
3. ابن خلدون، 2004م ــ مقدمة ابن خلدون، ج1، طبعة1، تحقيق عبد الله الدرويش، دار يعرب ــ دمشق. 569 صفحة
4. ابن خلدون، 1978م ــ من مقدمة ابن خلدون، تحقيق سهيل عثمان ومحمد درويش، منشورات وزارة الثقافة ــ دمشق.406 صفحة
5. بيلتو، بيرتي ج، 2010م ـ دراسة الأنثروبولوجيا، ترجمة كاظم سعد الدين، ضمن سلسلة كتب عالم الحكمة، بيت الحكمة العراقي ـ بغداد. 168صفحة.
6. الشماس، عيسى، 2004م ــ مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق. 190 صفحة.
7. ديركس، نيكوس، 2022م ــ إدوارد سعيد والأنثروبولوجيا، ترجمة وسيم سيفو، مجلة جسور ثقافية ـ دمشق، العدد 27، 171–188
8. روبرتس، جينيفر تي، 2014م ــ هيرودوت مقدمة قصيرة جداً، ترجمة خالد علي، مؤسسة هنداوي ــ المملكة المتحدة. 122 صفحة.
9. علي، حسان، 2021م ـ الميتافيزيقا بين كانط وهيدغر، رسالة دكتوراه، جامعة تشرين ـ اللاذقية. 190 صفحة

10. كنت، إمانويل، د.ت ـ نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبي، مركز الإنماء القومي ـ بيروت. 415 صفحة.

11. لالاند، أندريه، 2001م ـ موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، ط2، تعريب خليل خليل، منشورات عويدات ـ بيروت. 1678 صفحة

12. هولتكرانس، إيكه، 1972م ـ قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ط1، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف ـ القاهرة. 460 صفحة

12.2. المراجع الأجنبيّة:

1. KANT, IMMANUEL, 1974 -Anthropology from a pragmatic point of view, Trans: Mary J. Gregor, Martinus Nijhoff, The Hague- Netherlands, 209 p

12.3. Sources and References:(In Arabic)

1. ARISTOTLE, 1977- Animal Parts, trans: John ibn al-Patryq, achievement by Abd al-Rahman Badawi, Publications Agency- Kuwait, 279 pages

2. ALSHMAS, ISSA, 2004 - Introduction to Anthropology, Publications of the Arab Writers Union - Damascus. 190 pages.

3. BILTO, BERTIE J., 2010- Study of Anthropology, trans: Kazim Saad al-Din, part of the book series The World of Wisdom, Iraqi House of Wisdom Baghdad. 168 pages.

4. DIRKES, NIKOS, 2022 - Edward Said and Anthropology, trans: Wassim Sevo, Cultural Jusour Magazine- Damascus, Issue 27, 171-188

5. ERIKSEN, THOMAS, 2014 - History of Anthropology, trans: Abdo Al Rayes, The National Center for Translation - Cairo, 327 pages

6. HULTKRANTZ, AKE, 1972- Dictionary of Ethnology and Folklore Terms, 1st ed, trans: Muhammad Al-Gawhari and Hassan Al-Shami, Dar Al-Maaref - Cairo. 460 pages

7. IBN KHALDOUN, 2004- Ibn Khaldoun's Introduction, vol1, ed1, achievement by Abdullah al-Darwish, Dar Yarub- Damascus. 569 pages

8. IBN KHALDOUN, 1978- from Ibn Khaldoun's Introduction, achievement by Suhail Othman and Muhammad Darwish, Publications of the Ministry of Culture- Damascus.406 pages

9. ALI, HASSAN, 2021-Th Metaphysics Between Kant and Heidegger, PhD, Tishreen University- Latakia. 190 pages.

10. KENT, EMMANUEL, Without Date. Critique of Pure Reason, trans: Moussa Wehbe, Center for National Development- Beirut. 415 pages.

11. LALAND, ANDRE,2001-Laland Philosophical Encyclopedia, Vol1, 2st ed, Arabization of Khalil Khalil, Oweidat Publications - Beirut. 1678 pages

12. ROBERTS, JENNIFER T, 2014- Herodotus A very short introduction, trans: Khalid Ali, Hindawi Foundation- United Kingdom. 122 pages.

المصلح العثماني مدحت باشا (1822–1884)

طالبة الماجستير: رشا حسن كميل

شعبة: تاريخ حديث معاصر – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة البعث

إشراف: أ.د إلهام يوسف

ملخص البحث:

أدى الضعف العام الذي أصاب الدولة العثمانية وشمل جميع مجالات الحكم داخلياً وخارجياً، بازدياد الضغط الأجنبي المتعدد الأشكال واسترسال الدول الأوروبية في التدخل المباشر في شؤونها الى الإصلاح لتدارك هذا الضعف وليشمل الإصلاح مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية، وساهم في التوجه الى الإصلاح العديد من السلاطين والوزراء والصدور العظام، رغم اختلاف هؤلاء من حيث نزعاتهم وتوجهاتهم إلا أنهم التقوا في الإيمان بضرورة الإصلاح كضرورة حتمية للخروج بالدولة العثمانية الى بر الأمان فبذلوا في سبيل ذلك كل ما بوسعهم لإرساء قواعد الإصلاح عبر مؤسسات الباب العالي، ليكون من أبرز رواد الإصلاح مدحت باشا.

كلمات مفتاحية: الدولة العثمانية– مدحت باشا– الإصلاح– الدستور– الولايات.

The Ottoman reformer Medhat Pasha

(1822-1884)

Abstract

The general weakness that afflicted the Ottoman Empire and touched all areas of governance internally and externally, with the increase of foreign pressure in various forms and the urgency of European countries in direct intervention in its affairs to reform to remedy this weakness and to include reform in various political, economic, military and cultural fields, and many sultans and ministers contributed to the trend towards reform. And the great breasts, despite their differences in terms of their tendencies and orientations, they met in the belief in the necessity of reform as an inevitable necessity to bring the Ottoman Empire to safety, so they did everything in their power to establish the foundations of reform through the institutions of the Sublime Porte, to be one of the most prominent pioneers of reform, Medhat Pasha.

Key words: Ottoman empire- Medhat Pasha- Reform- Proclamation of the constitution-The State.

المقدمة:

شهدت الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حركة إصلاحيّة شملت كل ولاياتها في المشرق والمغرب، لمواجهة عوامل الضعف التي أصابت بنيتها الداخلية بفعل عدّة عوامل وأسباب تعددت بين داخلية وخارجية، وأدّت إلى هزائمها العسكرية، وكذلك بهدف تحديثها ليكون من أبرز روادها الذين تولوا تنفيذ الإصلاحات على أرض الواقع مدحت باشا، الذي تمكّن من إثبات مقدرته الإدارية في إدارته لعدّة ولايات، نظراً لما يتمتع به من قدرات في بث روح التجديد والتحديث، وإتباعه سياسة إصلاحية مستمدة من النهج الأوروبي، بهدف تحسين واقع الولايات التي تولى عليها وجعلها تلحق بركب الحضارة والتقدم.

إشكالية البحث: تتمحور الإشكالية حول دراسة إصلاحات مدحت باشا في عدة ولايات مختلفة لكل منها خصوصية معينة مع تأكيد ارتباطها بالدولة العثمانية، وتحت هذه الإشكالية تندرج بعض التساؤلات التي تفرض نفسها للإحاطة بجوانب البحث وهي:

- من هو مدحت باشا؟
- ماهي الظروف التي جاءت فيها إصلاحات مدحت باشا؟
- هل استطاع مدحت باشا تطبيق أفكاره الإصلاحية في الولايات التي تولى عليها؟

أهمية البحث: تكمن أهمية البحث في كونه سيشكل مادة علمية جديدة في دراسة إصلاحات مدحت باشا في محاولة جادة منه لتدارك الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية وولاياتها، ولمواكبة التطور والتقدم في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الطراز الأوروبي الذي كان معجباً ومتأثراً به.

الجديد في البحث: الكشف عن الحركة الإصلاحية الواسعة التي طبقها مدحت باشا في عدة ولايات، دون التخصص في إصلاحاته ضمن ولاية واحدة على غرار البحوث السابقة.

أهداف البحث وأسئلته:

التعرف على وضع الدولة العثمانية، والدافع الى اتخاذ سياسة الإصلاح كحل لتغيير وضع الدولة الموسومة بالضعف والفساد، وسيحاول البحث الإجابة عن العديد من التساؤلات منها على سبيل المثال:

- بروز الإصلاح هل كان استجابة لوضع الدولة المتردي أو خطوة اقتضتها الظروف استجابةً للتأثير الأوروبي؟
- ما هي المجهودات المبذولة من قبل مدحت باشا باعتباره أبرز رواد الإصلاح؟
- هل استطاع مدحت باشا أن، يحرز النجاح في إصلاح الولايات مع تأكيد المركزية العثمانية؟

إن البحث بشموليته سيوضح الإجابة على هذه التساؤلات وغيرها من خلال المصادر والمراجع المعتمدة في البحث.

فرضيات البحث: تناول البحث فرضيات عدة عن شخصية مدحت باشا، وتأثير هذه الشخصية ودورها الفعال، من خلال المناصب التي تبوؤها في العاصمة إستانبول من جهة، وتطبيق الإصلاح في الولايات التي تولى عليها من جهة ثانية.

حدود البحث: يرتبط موضوع البحث بإطار زمني يحدد بدايته عام 1822، وهو عام ولادة مدحت باشا، ليشكل نهايته عام 1884، وهو تاريخ وفاته، ليشمل الإطار المكاني الدولة العثمانية وولاياتها.

مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائية:

سياسة الإصلاح: مجموعة من التصورات والمقترحات فرضتها الحاجة الداخلية للدولة العثمانية التي من شأنها إذا طبقت أن تحدث تغييراً الى الأفضل في المجالات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

هناك العديد من الدراسات التي تحدثت عن مدحت باشا وإصلاحاته ومنها:

- مذكرات مدحت باشا، والتي قام بترجمتها، يوسف كمال بك حتاته، وهو من موظفي نظارة المعارف العثمانية، والتي أفادت البحث في تتبع مسيرة حياة مدحت باشا بكامل تفاصيلها من النشأة وحتى الوفاة وشكلت مذكراته خير مصدر للإصلاحات التي قام بها في الولايات التي أنيط إليه أمر إدارتها.
- كتاب تاريخ العرب الحديث (1500–1918) للدكتور عبد الكريم محمود غرايبة، ويندرج هذا الكتاب ضمن الكتب الهامة التي تم الاعتماد عليها، ويقع في خمسة

أقسام، تناول القسم الأول الأتراك في تاريخ العرب، والقسم الثاني التاريخ السياسي للعالم العربي في العهد العثماني، ومن ثم الثالث الذي تناول المجتمع العربي في العهد العثماني، ليبحث القسم الرابع في العرب والغرب في العهد العثماني فيما اختص القسم الأخير بالعرب في القرن العشرين، وقسم بدوره مرحلة العراق في العهد العثماني إلى ثلاثة أدوار، امتد الدور الأول من 1534–1703، أما الدور الثاني من 1703–1830، واختص الدور الثالث بالمدة من 1832–1918، وضمن هذا الدور ولاية مدحت باشا على بغداد 1869، والتي حازت على جانب كبير من الدراسة.

- رسالة ماجستير بعنوان الإدارة العثمانية في ولاية سورية لعبد العزيز محمد عوض، تحتوي هذه الرسالة على مقدمة وإحدى عشر فصلاً، بحث في الفصل الأول التنظيمات العثمانية وأثرها في حكم الولايات، فيما اختصت الفصول الأخرى بالإدارة المالية ونظام الضرائب والمواصلات والجهاز الإداري والعسكري، إضافة إلى عدد من الملاحق الهامة، والرسالة التي نحنُ بصددها اعتمد في كتابتها على مجموعة من الوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء في إستانبول، وسجلات المحاكم الشرعية في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق.
- كتاب زعماء الإصلاح في العصر الحديث للدكتور أحمد أمين، وتضمن هذا الكتاب سيرة عشرة من المصلحين ويصوّر فيه حياة المصلحين ونوع إصلاحهم، هادفاً أن يكون كتابه باعثاً للشباب يستثير هممهم ليحذون حذو أولئك المصلحين وينهضون بأممهم، ومن بين أبرز هؤلاء المصلحين مدحت باشا، وهذا ما قدم فائدة كبيرة في تتبع شخصية مدحت باشا من النشأة ثم الإصلاح حتى الوفاة.
- كتاب العثمانيون في ثلاث قارات لمؤلفه إيلبير أورتايلي، ترجمة عبد القادر عبد اللي، ويعرض هذا الكتاب الشكل الإداري الذي كان متبعاً في الدولة العثمانية ونظامها القومي والحقوقي وعلاقاتها الدبلوماسية وغير ذلك وضمنه حتماً إدارة مدحت باشا.
- كتاب تكوين العرب الحديث للدكتور سيار الجميل، يقسم هذا الكتاب إلى مقدمة ومدخل موضوعي عالج فيه الكثير من المفاهيم الأساسية من أبرزها مفهوم

الوطن العربي، وعشرة فصول حرص أثناء ترتيبها على إبراز الحلقات التاريخية في التطور السياسي للمنطقة العربية وأقاليمها تحت حكم الدولة العثمانية، الممتدة من العراق حتى الجزائر، ويختص الفصل التاسع بإصلاحات الدولة العثمانية في بلاد الشام والعراق، خاتماً كتابه بالفصل العاشر الذي بحث فيه مواضيع مختلفة ضمن إطار الدولة العثمانية وعلاقاتها بأوروبا وروسيا، وتبلور الظاهرة الاستعمارية من خلال منظور المسألة الشرقية وبداية عصر الغزو الاستعماري وبالتالي فقدان الدولة العثمانية لأبرز أقاليمها العربية.

- كتاب تاريخ مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقي العثمانية بقلم عزراسمويل ساسون وهو مفتش مطبوعات ولاية حلب ومدرس في مكاتبها سابقاً، ويؤرخ هذا الكتاب حياة مدحت باشا بكامل تفاصيلها، وسعيه في سبيل نشر الحرية والمساواة والعدالة.
- كتاب تاريخ لإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، تأليف السفير الفرنسي انكه لهارد، نقله الى العثمانية علي رشاد، وترجمه الى العربية محمود علي عامر، كتب فيه عن التاريخ العثماني وما يتعلق بالقانون والأنظمة والإصلاحات التي كانت الدولة العثمانية تحاول القيام بها، وما استطاعت تنفيذها من عهد السلطان (محمود الثاني) وحتى أواخر عام 1882، ويندرج ضمن ذلك إصلاحات مدحت باشا.

منهج البحث وإجراءاته:

للإلمام بجوانب البحث وفق دراسة منهجية وعلمية تم الاعتماد على المنهج التاريخي القائم على جمع المادة التاريخية من المصادر والمراجع وتحليلها وتقدها، مع الالتزام بمنهجية البحث التاريخي سواء ما تعلق منها بالمعرفة التاريخية المنظمة القائمة على الشمول والجمع والعرض وتقاطع المعلومات عما كتب عن إصلاحات مدحت باشا يضاف الى ذلك المعالجة الموضوعية المتعلقة بالصياغة والتركيب الصحيح، وبالتالي تقديم دراسة علمية تعتمد على القراءة الصحيحة للأحداث التاريخية ووضعها في إطار يخدم القراء والباحثين.

1- نشأة مدحت باشا:

مع مدحت باشا تكتسب الصورة النمطية للمصطلح العثماني بعداً جديداً بلا جدال، والانغراس فيما يمكن تسميته بالإمبراطورية العميقة الأغوار، فكان أول مصلح يجعل من هذا العالم المختبر الرئيسي [1]للتنظيمات،[2] وُلِدَ أحمد شفيق وهو الاسم الحقيقي لمدحت باشا في الأستانة عام 1822م،[3] لأب يدعى الحاج حافظ محمد أشرف وهو عالماً دينياً تولى منصب القاضي في العديد من ولايات الدولة العثمانية، نشأ مدحت باشا نشأة دينية، فحفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره فلقّب بالحافظ، وهو لقب لكل من يحفظ القرآن من الأتراك، فكان اسمه الحافظ شفيق، أما مدحت الذي غلب عليه فهو اسم ديواني[4]،حيث أدخله والده عام 1834م،الى ديوان همايوني[5]،فتعلم الخط الديواني الخاص بهذا القلم وكانت العادة الجارية بتسمية من يتخرج من هذا الديوان[6] باسم جديد فأطلق عليه اسم مدحت[7]، فقد كان أبوه في ذلك الحين من أكبر الميالين الى الترقي والعمران ومن أعظم السياسيين بين رجال الدولة ومثال للاستقامة والنزاهة وعنوان الفضل والكمال، فكان لابنه مدحت أول أستاذ، وكان تقدُّم مدحت باهراً ونجاحه سريعاً.[8]

---

[1]التنظيمات: تمثلت في سلسلة طويلة من القوانين والنظم، فصدر في هذه السلسلة ثلاثة قوانين لفتت نظر أوروبا، وكان ذلك هو الهدف الحقيقي من وراء إصدارها، وهذه القوانين هي خط كلخانة 1839، وخط شريف همايون 1856، وإعلان الدستور العثماني 1876.

عمر، عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي (1516-1922)، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص274.

[2]مانتزان، روبير: تاريخ الدولة العثمانية، تر: بشير السباعي، ج2، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1992، ص71.

[3]الثاني، عبد الحميد: مذكراتي السياسية، تر: علي وهبي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1977، ص 11.

[4]بعيو، غانية: التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية، مذكرة ماستر، جامعة الجزائر، 2009، ص92.

[5]الديوان الهمايوني: بمثابة مجلس وزراء موسع، وكان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته، واستمر هذا التقليد حتى عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566). للمزيد:

ياغي، إسماعيل أحمد: العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1997، ص70.

[6]الديوان: المجلس الأعلى للحكومة السلطانية ويدخل ضمن أعضائه الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وغيرهم من كبار الموظفين، ويحفظ فيه سجلات الدولة.

دولينا، أنينل اسكندرفنا: الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية، تر: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص 175.

[7]هيشر، منيرة: العراق في عهد مدحت باشا، مذكرة ماستر، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2018، ص24.

[8]ساسون، عزراسمويل: مدحت باشا، مطبعة جرجي غرزوزي، الإسكندرية، 1910، ص6.

2- تعليمه:

تلقى مدحت باشا العلوم الابتدائية في بعض مكاتب إستانبول فأحسن اللغة التركية[9]، ثم تنقل مع والده في الولايات التي تولى فيها القضاء يتعلم منه، وعند عودة والده الى إستانبول ألحقَهُ بأحد أقلام الحكومة يساعد الكتبة ويتعلم منهم بعض الوقت وبعضه الآخر يقضيه في جامع الفاتح[10]،حيث كانت حلقات الدروس فيه تشبه حلقات الأزهر[11]، فكان يتعلم فيه اللغة العربية والفارسية والدروس الدينية والنحو والمنطق والفقه والفلسفة التي كانت تسمى الحكمة،[12] وبقي على هذا الحال الى أن ناهز العشرين، تلميذاً في دواوين الحكومة، وتلميذاً في جامع الفاتح، إلا أن ثقافته كانت ثقافة ضعيفة فلا تاريخ ولا جغرافية ولا رياضة ولا لغة أجنبية، لذلك شعر مدحت باشا بنقصه الثقافي، فأخذ يطالع الكتب بنفسه،[13] ثم رأى الحاجة ماسة لتعلم لغة أجنبية، فدرس اللغة الفرنسية لأنه كان معجباً بمبادئ الثورة[14] الفرنسية،[15] وزار عدّة دول أوروبية وكان قصده التجول كإداري حازم وسياسي خبير، فاطلع على كل شيء لاحظه بإمعان وراقبهُ وقارنهُ ليدرك مناقبهُ ومضاره

---

[9] هيشر، العراق في عهد مدحت باشا، ص 25.

[10]جامع الفاتح: ويعرف بكنيسة أيا صوفيا سابقاً، وعندما فتح السلطان محمد الفاتح (1451-1481) القسطنطينية عام 1453، أمر بتحويلها إلى مسجد لفتح المدينة عنوة.

الصباغ، عبد اللطيف: تاريخ الدولة العثمانية، بنها، 2013، ص 59.

[11]جامع الأزهر: هو أول جامع أسس في القاهرة، أنشأه جوهر الصقلي عام 970م، وكان الأزهر الشريف في أول نشأته موضوع عناية الخلفاء الفاطميين في مصر، ومن بعدهم الملوك والأمراء والوزراء، وذوي الجاه الذين تنافسوا في خدمة هذا الجامع، يتعهدون أهله، ويشرفون على حلقات الدروس فيهز للمزيد:

أبو العيون، محمود: الجامع الأزهر، مطبعة الأزهر، 1949، ص 13.

[12]تقروت، أحلام – أوسال، حياة: إصلاحات مدحت باشا في العراق، مذكرة ماستر، جامعة الجيلالي، 2015، ص 23.

[13]أمين، أحمد: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948، ص 31.

[14] الثورة الفرنسية: قامت في 14 تموز عام 1789، وشعارها الحرية والمساواة والإخاء، وكان سقوط سجن الباستيل في أيدي ثوار الثورة الفرنسية أهم علامة لانتصار الثوار وسقوط المجتمع الإقطاعي في أوروبا.

عوض، لويس: الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص7.

[15]الأسدي، كاظم: مدحت باشا والياً لسوريا، مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد السابع، العدد الثاني، 2009، ص 285.

ليجتهد في إدخال ما رآه منها نافعاً ومفيداً ويخدم بلاده ورفاهيتهُ،[16] كما زادتهُ خبرة في كافة الميادين الاجتماعية والإدارية والسياسية.[17]

3- المناصب التي تولى عليها مدحت باشا:

أرسل مدحت باشا في عام 1842، ليعمل مساعد بجانب كاتب تحريرات الشام، واستمر في الوظيفة مدة سنتين ونصف السنة، انتقل بعدها ليعمل كاتباً بولاية[18] قونيه[19] عام 1845م، وفي عام 1850م رئيساً لقلم الصدارة،[20] ثم تدرج في الوظائف الحكومية موثقاً أواصر علاقاته ببعض ذوي الشأن من رجال الدولة لتعهد إليه في عام 1852م مهمة رئاسة لجنة تفتيشية في إيالتي دمشق وحلب، فنجح في مهمته نجاحاً باهراً وحظيَّ باحترام رؤسائه،[21] حيث أنه وقع خلاف بين ملتزمي جمارك الشام وحلب، واشتدّ هذا الخلاف وتأخر بسببه وصول مبلغ خمسين كيس من النقود للحكومة، والتي أرسلت بدورها مدحت باشا للتحقيق في القضية، فعاد بعد ستة أشهر وقد استرد مبلغ ألف وأربعمائة كيس من مال الحكومة المسلوب من واردات الجمارك،[22] وتقلدّ بعدها بين عامي 1853م و1858م، وظائف عديدة في البلقان وودين وسلسترة،[23] فاستطاع لفت الأنظار إليه بسبب القوة والحنكة التي أظهرها في إدارة الأزمات لذلك تم ترقيتهُ الى منصب الوالي وتولى عدة ولايات.[24]

---

[16] أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 25.

[17] الأسدي، مدحت باشا والياً لسوريا، ص 285.

[18] ولاية: المنطقة الإدارية التي تقع تحت إدارة الوالي.

صابان، سهي: معجم الألفاظ العربية في اللغة التركية، الرياض، ط1، 2005، ص 234.

[19] قونية: تقع في جنوب آسيا الصغرى، يحدّها شمالاً أنقرة، وغرباً آيدين، وشرقاً أضنة، وجنوباً بحر سفيد كورفز أنطالية. للمزيد:

الشرقاوي، أحمد: جغرافية الممالك العثمانية، دار البشير، ط1، 2018، ص191.

[20] الأسدي، مدحت باشا والياً لسوريا، ص 285.

[21] النجار، جميل موسى: الإدارة العثمانية في ولاية بغداد "من عهد الوالي مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني"، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1991، ص 145.

[22] قلعجي، قدري: مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، دار العلم، بيروت، ط3، 1958، ص 10.

[23] طقوش، محمد سهيل: تاريخ العراق الحديث والمعاصر، دار النفائس، بيروت، ط1، 2015، ص 96.

[24] هيشر، العراق في عهد مدحت باشا، ص 27.

أ- ولاية مدحت باشا على الصرب وبلغاريا 1860م:

تبوأ محمد باشا القبرصي مركز الصدارة فاختار مدحت باشا لحل مشاكل البلقان التي كانت تزداد اضطراباً، حيث كانت تعاني من الفتن والثورات بسبب ظلم الولاة،[25] فقد كان حاقداً على مدحت، فأرسله إليها لعله يفشل أو يقتل، وسافر مدحت ومعه قوة عسكرية، وقضى ستة أشهر في قمم الجبال ومغاورها يقبض على أشقيائها وأثبت إدانة أربعة منهم وأعدمهم، وأرسل ثمانين شخصاً الى إستانبول وهدأت الفتنة فوضع مدحت باشا مشروعه الإصلاحي،[26]معنياً بتحقيق الأهداف التالية:

- المساواة بين رعايا السلطان.
- تركيز القوة الإدارية والقضائية في يد رجال الحكومة.
- خلق الموظف الأمين الذي يستطيع أن يلائم بين مصالح حكومته والرعية.
- إشراك الأهالي مع الإدارات المختلفة في إصلاح إمور البلاد.
- سد الثغرات التي تنفذ منها الدول الأجنبية للتدخل في إمور الولايات.[27]

ب- ولايته على نيش[28] عام 1861:

كانت ولاية نيش خالية من الخطوط الحديدية، والنقابات الزراعية، والمواصلات التجارية، وعرة المسالك وصعبة الطرق وقد احتكر فيها الأجانب كافة أنواع التجارة، مما عاد على الأهالي بالخسارة،[29]فبدأ مدحت باشا بتطبيق برنامجه الإصلاحي الشامل، فعمل على:

- نشر العدل والمساواة في الحقوق والواجبات بين سكان المنطقة.
- عدم التمييز بين المسلمين والمسيحيين، فأشرك الجميع في إدارة شؤون الولاية.

---

[25]محمد باشا القبرصي: مشير فيلق بلاد العرب، وتولى منصب الصدارة العظمى عدة مرات، فكانت الصدارة الأولى عام 1854، والثانية 1859، والثالثة 1860.

قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، ص10- 12.

[26]أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 32.

[27]نوار، عبد العزيز سليمان: تاريخ العراق الحديث، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968، ص353.

[28]نيش: تقع جنوب الصرب وتقع على الطريق الواصل بين إستانبول وسلانيك من دول البلقان، وهي حالياً تقع الى الشمال الغربي من مدينة صوفيا الواقعة على الحدود البلغارية.

هيشر، العراق في عهد مدحت باشا، ص 27.

[29]ساسون، مدحت باشا، ص 26.

- أنشأ مجالس للبلدية وأعاد هيكلة الإدارة، وخصص دوائر للشرطة.
- أعفى المزارعين من الضرائب شريطة أن يطوروا ويزيدوا في كمية الإنتاج.
- خصص جنود لحماية الحدود وحراسة الطرق ليعم الأمن والاستقرار.
- حثَّ على التعليم ووفر كل متطلباته.[30]

وقد استمر في ولايته على نيش حوالي ثلاث سنوات، ثم انتقل بعدها الى ولاية[31] الطونة.[32]

ج- ولايته على الطونة 1864:

رأى كل من عالي باشا[33] وفؤاد باشا[34] أنه يمكن استخدام إصلاحات مدحت باشا كأساس لنظام عام للولايات، فاستدعيا مدحت باشا، وتدارسا الموضوع واتفقوا على ضم سلستريا وودين ونيش بعضها الى بعض لتكون ولاية الطونة التي سينفذ فيها أول تجربة لإصلاح الولايات، وبعد دراسات عديدة تم وضع قانون[35] الولايات[36] عام 1864،

---

[30] هيشر، العراق في عهد مدحت باشا، ص 28.

[31] الطونة: ولاية عثمانية تقع على نهر الدانوب ويحدها شمالاً الافلاق وجنوباً بلاد البلغار.

هيشر، العراق في عهد مدحت باشا، ص 28.

[32] حسين، شايب الذقن: إصلاحات مدحت باشا في العراق، مذكرة ماستر، جامعة محمد بو ضياف، 2015، ص 16.

[33] عالي باشا: من أبرز رجال الإصلاح والمؤمنين به، عمل على إصلاح الدولة العثمانية سواء كان في منصب الصدارة العظمى أم غيرها من مناصب الدولة الكبرى، وعيّن سنة 1854 رئيساً للمجلس الأعلى للتنظيمات ثم في الصدارة العظمى، ومن أعماله الإصلاحية مساهمته أيضاً في إصدار خط شريف همايوني 1856.

تومي، حمزة: الإصلاحات العثمانية بين المتطلبات الداخلية والضغوط الأوروبية، مذكرة ماستر، جامعة محمد بو ضياف، 2015، ص 10.

[34] فؤاد باشا: عينه السلطان عبد العزيز صدراً أعظماً عام 1861، ولم تدم صدارته الأولى طويلاً وبعد بضعة أشهر أُعيد إليها، فبذل جهده في إصلاح المالية.

فريد بك، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، ط1، 1981، ص 540.

[35] قانون الولايات: صدر عام 1864، وهو نظام خاص بإعادة تنظيم الولايات العثمانية، ويعين على كل منها والي إلى جانبه مجالس استشارية ومجالس عامة للولاية، كان القصد منها إشراك السكان في البحث بالمسائل الخاصة بولايتهم مع السلطات الحاكمة.

طقوش، تاريخ العراق الحديث والمعاصر، ص 97.

[36] نوار، تاريخ العراق الحديث، ص 354.

وبعدها ذهب مدحت باشا الى ولاية الطونة التي ضمت منطقة كرنوفا وصوفيا وروستشوك وفارنا وفيدين تقريباً، وكان مركز ولاية الطونة هو روستشوك اليوم، وهذا المدينة الواقعة على ضفة نهر الطونة غنية منذ القدم بسبب التجارة النهرية، وقد نما حجمها ثلاثة أضعاف في فترة ولاية مدحت باشا، حيث أنشأ فيها قصر الولاية، وأسس فيها شرطة سياسية سرية وهكذا كان مدحت باشا مؤسس الشرطة السرية فأدى دوره في توفير أمن الولاية، وأسس مطبعة الولاية عام 1865 وبدأ باستصدار جريدة الولاية التركية– البلغارية باسم طونة، وكانت أول نموذج لجرائد الولايات، وقد أدى دوراً مهماً في الصحافة البلغارية، وكانت تصدر مرتين في الأسبوع،[37] كما أنشأ المدارس في أنحاء الولاية، وأنشأ المستشفيات وأصلح من الطرق نحو ألفي ميل، وبنى نحو ألف وأربعمائة جسر[38]، إلا أن أكثر ما كان ملفتاً للنظر هو الطرق الحديثة المستخدمة في الزراعة،[39] حيث عمل على تأسيس البنوك الزراعية،[40] لتخليص الفلاحين من براثن المرابين كما أسس شركة عربات الركوب والنقل لتسير في الطرق الزراعية وأحدث لها المحطات الخاصة بها،[41]وقد خصص للدولة مزارع خاصة بها لتعود بالدخل المادي عليها، كما ألّف المجالس الإدارية والبلدية[42]، ونظراً لأن روسيا كانت تشكل خطراً مباشراً على الطونة، لم يعتمد مدحت باشا فقط على الجيش العثماني في الدفاع عنها، بل اعتمد كذلك على المتطوعين الذين يحصلون على مرتب من الحكومة ليصد بهم أي هجوم مفاجئ وأنشأ لهذا الغرض نقاط حراسة على طول الحدود وبعد عودته من ولاية الطونة الى إستانبول، طبّق عدداً هاماً من تلك الإصلاحات ولنجاحه هذا أسند إليه عام

---

[37]ايلبير أورتايلي، العثمانيون في ثلاث قارات، تر: عبد القادر عبد اللي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2014، ص 93.

[38] أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 33.

[39]لهارد، انكه: تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، تر: محمود علي عامر، دار رسلان، دمشق، 2017، ص 318.

[40]لونكرك، ستيفن هيمسلي: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، تر: جعفر الخياط، مطبعة الأهلية، بغداد، 1941، ص222.

[41]حتاته، يوسف كمال بك: مذكرات مدحت باشا، مطبعة هندية، مصر، ط1، 1907، ص142.

[42]هيشر، العراق في عهد مدحت باشا، ص 28.

1868 السلطان[43] عبد العزيز[44] رئاسة مجلس[45] الشورى،[46] لكن مدحت باشا لم يستمر طويلاً في منصبه حيث اضطر لتقديم استقالته[47] من هذا المنصب حسماً للخلافات التي نشبت بينه وبين الصدر الأعظم نديم باشا[48] فقدم مدحت باشا استقالته فقبلها السلطان وأسند إليه إدارة شؤون الفيلق الهمايوني السادس[49] مع ولاية بغداد.[50]

د- ولاية مدحت باشا على بغداد 1869:

وصل مدحت باشا بغداد في الثلاثين من نيسان عام 1869، ولم تدم ولايته فيها أكثر من ثلاث سنوات، ولكنه في هذه المدة القصيرة حقق جانباً كبيراً من الإصلاحات، وترك

---

[43]السلطان: يعني الحجة وسميَّ السلطان بذلك لأنه حجة على الرعية يجب عليهم الانقياد لهُ، وقُيل إنه مشتّق من السلاطة وهي القهر والغلبة لقهره الرعية وانقيادهم له، وقيل مشتّق من السليط لأنه يستضاء به في خلاص الحقوق. مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب، القاهرة، 2000، ص33.

[44]السلطان عبد العزيز (1861-1876): ولد عام 1830، جلس على العرش عام 1861، وخلع عام 1876، قضى خمسة عشر عاماً على العرش وامتاز عهده ببعض الإصلاحات على أيدي الصدرين الأعظمين علي باشا، وفؤاد باشا.

الثاني، عبد الحميد: مذكراتي السياسية، تر: علي وهبي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1977، ص26.

[45]مجلس الشورى: من أعلى المجالس في الدولة العثمانية، ويبت في إمور المقاولات الخاصة بالمشاريع الحكومية، وإمور التقاعد وتدقيق النظم وتمحيصها. للمزيد:

صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص 141.

[46]نوار، تاريخ العراق الحديث، ص 354-355.

[47]حسين، إصلاحات مدحت باشا في العراق، ص 17.

[48]نديم باشا: تقلد مناصب عديدة حتى عين صدراً أعظماً خلفاً لعالي باشا، أُقيل ثم أُعيد للصدارة أكثر من مرة، وكان الوزير الأول في عهد السلطان عبد العزيز، وفي عهد السلطان عبد الحميد عينه وزيراً للداخلية حتى وفاته عام 1881.

هيشر، العراق في عهد مدحت باشا، ص 29.

[49] الفيلق الهمايوني السادس: تولى مهمة الحماية على العراق في عام 1848، وجعلت مدينة بغداد مركزاً له، ونطاق عمله جميع الأراضي العراقية، وكان جيشاً قائماً بذاته، له قائد عام برتبة مشير وأركان حرب وأمراء وقواد لوحداته المختلفة وعدد كبير من الضباط والجنود، يتبع الفيلق السادس باب عسكر في إستانبول الذي يقوم بتعيين القادة. للمزيد:

كاظم، محمد جودي - محيسن، يسرى: قانون التجنيد العسكري العثماني وتطبيقه في ولايات العراق الثلاث، مذكرة ماستر، جامعة القادسية، 2018، ص 11.

[50] طقوش، تاريخ العراق الحديث والمعاصر، ص 97.

آثاراً لا يزال بعضها ماثلاً حتى اليوم،[51] ويبدو أن بعض كبار الساسة في الدولة العثمانية الذين خشوا من شعبية مدحت باشا تمكنوا من إقناع السلطان عبد العزيز (1861–1876)، بإبعاده الى بغداد، إما لمقدرته على التعامل مع الأجانب لا سيما البريطانيين الذين تغلغلوا في ربوع العراق أو أنه أُرسِل عمداً بفعل قرب انتهاء حفر قناة السويس،[52] ثمّ أن هذه الشخصية القوية هي القادرة على توجيه شؤون العراق وفق أهداف الدولة العثمانية نحو تقوية قبضتها على السواحل العربية في الخليج العربي وجعل العراق طريقاً عالمياً يضاهي قناة السويس،[53] وعلى الرغم من هذه الظروف التي عين فيها مدح باشا والياً على بغداد فإن عهده لهذه الولاية يُعدّ نقطة تحول في تاريخها العثماني، نظراً لتلك الإنجازات والأعمال الإصلاحية التي قام بها، حتى وصف بأنه "أعظم والي عثماني أرسل الى بغداد، وأعظم الولاة العثمانيين في بغداد شهرة وأكثرهم نشاطاً"[54]، وذلك بفضل قدراته الإدارية المتميزة والمواهب الشخصية المتعددة التي اتصف بها، حيث قسم العراق الى ولايتان هما بغداد والموصل وشملت الأولى بغداد نفسها والبصرة، وولاية الموصل التي شملت الموصل وشهرزور،[55] وقسم هذه الولايات بدورها إلى ألوية وأقضية ونواح، وقد كان هذا التقسيم ضرورياً لتشكيل الإدارة الجديدة بموظفيها الجدد ذوي الاختصاصات المحددة،[56] كما اهتم اهتماماً بالغاً بالجيش، فعمل على تطبيق قانون التجنيد، وجلب الى الجنود آلات موسيقية كاملة للترفيه عنهم، وأنشأ

[51]بطي، رفائيل: الصحافة في العراق، معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية، 1955، ص 11–12.

[52]قناة السويس: تقع قناة السويس في مركز محافظة السويس في مصر، وتعرف القناة باسمها والتي تعد شريان مصر الحيوي، وتم إنشاء هذه القناة عام 1869، لتصل أوروبا بالمشرق، وتختصر المسافة بينها، ويبلغ طولها الإجمالي 183كم، وأقصى عرض لها 150م، أما عمقها فهو حوالي 15م، تمر القناة بالبحيرات المرة، وبحيرة التمساح، وأُنشأ حديثا تحتها نفق يربط ضفتي القناة الشرقية والغربية بطريق مزدوج للسيارات.
شامي، موسوعة المدن العربية والإسلامية، ص 202.

[53]طقوش، تاريخ العراق الحديث والمعاصر، ص 97.

[54]النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد "من عهد الوالي مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني"، ص 150.

[55] طربين، أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، المطبعة الجديدة، دمشق، 1986، ص 323.

[56]عمر، تاريخ المشرق العربي (1516–1922)، ص 393.

معمل الخبز للجنود (الاكمكخانة)، وبنى الثكنة العسكرية (القشلة)، وأنشأ معملاً لنسج ثياب الجنود (العباخانة)،[57] وأولى عناية خاصة للتعليم والصحافة، فعمل على إنشاء المدارس الحديثة، وأنشأ جريدة رسمية سماها "الزوراء"، بقيت تصدر الى أيام خروج العثمانيين، وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية،[58] ونجح في توطين العشائر واستقرارهم حيث فوّضَ[59] الأراضي لصغار المزارعين، وعمل على إدخال نظام الطابو[60] للحصول على سندات الملكية[61] وألغى العديد من الضرائب وعدّل بعضها الآخر،[62]ولم يغفل عن العناية بالصحة فعمل على بناء مستشفى عام سمّي بمستشفى الغرباء، وهيّأ الأطباء والمعدات اللازمة له، وأقام دوائر الحجر للحد من تسرب الأمراض الوافدة الى بغداد من الهند وإيران عن طريق الحجاج الى الأماكن المقدسة وعن طريق القوافل التجارية[63] وكذلك اهتم بالمواصلات البرية والنهرية وعمل على إنشاء[64] الترامواي،[65] كما

---

[57]الأعظمي، علي ظريف: مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، مطبعة الفرات، بغداد، 1926، ص 240-241.

[58]الكرملي، أنستاس ماري: خلاصة تاريخ العراق، مؤسسة هنداوي، 2017، ص 171.

[59]تفويض الأراضي: هو أن يمنح الشخص حق التصرف بالأرض من الدولة مباشرة.

نصار، عبد العظيم عباس: الأراضي الأميرية في وثائق عثمانية، مجلة كلية التربية والعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، المجلد 4، العدد 6-7 2010، ص 138.

[60]نظام الطابو: نظام المتصرف بالأرض، أو من خولته الحكومة العثمانية التصرف بالأراضي العائدة رقبتها للخزينة العامة، بعد وضعها بالمزايدة العلنية، وتفويض من تؤول إليه قطعة من الأرض الأميرية حق الانتفاع بعد دفع البدل، ويبقي الملك للحكومة ويرث الأبناء حق الانتفاع عن آبائهم. وإذا أهمل الأرض أربع سنوات تعطى لغيره، أما سندات الطابو فقد دعت الحاجة لإعطاء الأهالي وثائق خاصة من أجل طمأنتهم على أموالهم غير المنقولة.

الجميل، سيار: تكوين العرب الحديث، دار الشروق، عمان، ط1، 1997، ص398.

[61]نظمي، وميض جمال عمر: الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، بغداد، ط2، 1985، ص53-54.

[62]إيمان، سليماني: الوالي مدحت باشا ونشاطه في الدولة العثمانية بين العمالة والإخلاص (1822-1884)، مذكرة ماجستير، الجزائر، جامعة بو ضياف، 2019، ص19.

[63]اللامي، فردوس عبد الرحمن كريم: الحياة الاجتماعية في بغداد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2017، ص 452.

[64]الترامواي: أصل الكلمة من لفظة tram way الإنكليزية، والترامواي هو وسيلة نقل حديثة عُرفت في القرن التاسع عشر، ويتألف من سكة حديد تسير عليها عربات تجرها الخيول.

عبد الرزاق، صلاح: إصلاحات مدحت باشا في بغداد، مجلة الزمان، دراسة (3-4)، 2019/11/23، ص2.

[65]العلاف، عبد الكريم: بغداد القديمة، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1960، ص 15.

انتهز مدحت باشا فرصة زيارة شاه إيران ناصر الدين الى بغداد لمناقشة كل الحوادث المختلف عليها بين بغداد وحكومة إيران،[66] وفي عام 1872، صدر فرمان سلطاني بعزل مدحت باشا عن ولاية بغداد بعد حكم دام قرابة ثلاثة سنوات وثلاثة أسابيع.[67]

هـ- صدارة مدحت باشا الأولى والثانية:

بعد عودة مدحت باشا من بغداد، وخلال هذه الفترة كانت الدولة العثمانية تمر بظروف صعبة أبرزها ضغط الدول الأوروبية على السلطان عبد العزيز (1861-1871)، ليقوم بإصلاحات داخل مؤسسات الدولة العثمانية وكان السلطان عبد العزيز يدرك ما يتمتع به مدحت باشا من احترام الدول الأوروبية ومقدرته على العمل الإداري، فأصدر فرمان[68] بتعيينه صدراً[69] أعظم في آب عام 1872،[70]ولكنه أعفي من منصبه بعد شهرين ونصف لاختلافه مع السلطان عبد العزيز في الرأي والفكر،[71] حيث كانت الدولة العثمانية تواجه اضطرابات خطيرة جداً تزامناً مع إعلان الدولة العثمانية إفلاسها كنتيجة لبذخ السلطان، فأصبح من الضروري انتزاع السلطنة منه قبل أن يحل بها الانهيار أو التمزيق بين القوى الأجنبية[72]، واعتبر أعضاء العثمانيون الجدد[73] أن

---

[66]حتاته، مذكرات مدحت باشا، ص169.

[67]الكرملي، خلاصة تاريخ العراق، ص 171.

[68]الفرمان: لفظ فارسي معناه أمر أو حكم أو دستور موقّع من الملك، استعمله الأتراك في العصر العثماني بمعنى الأوامر السلطانية.

الخطيب، مصطفى عبد الكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ط1، 1996، ص 338.

[69]الصدر الأعظم: هو رئيس الديوان، ويهيمن على شؤون الجيش ويقود المعارك الحربية حين تدعو الضرورة ويحمل الخاتم السلطاني رمزاً لقوته.

الشناوي، عبد العزيز: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980، ص 360.

[70]الأسدي، مدحت باشا والياً لسوريا، ص 285.

[71]ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ص 175.

[72]رامزور، ارنست: تركية الفتاة وثورة 1908، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة فرنكلين، بيروت، 1960، ص 42.

[73]العثمانيون الجدد: أطلقوا على أنفسهم اسم (يكي عثمانلي) أي العثمانيون الجدد، وكانوا مستائين من الوضع في الدولة العثمانية، ومن نتائج التنظيمات المزرية، ومن تغلغل الرأسمال الأجنبي، ويتلخص برنامجه في تنمية الرأسمالية الوطنية، ووضع نظام دستوري برلماني، وكانوا على صلة وثيقة بمدحت باشا. للمزيد:

مدحت باشا قائداً طبيعياً لفكرهم[74]، وكان مدحت باشا يرى أن الشعب يجب أن يكون صاحب السلطة الأولى في البلاد، وإرادته فوق إرادة السلاطين[75]، فاتفق مع حسين عوني رئيس دار الشورى، وسليمان باشا قائد المدرسة الحربية على عزل السلطان عبد العزيز[76] وبالاتفاق كذلك مع قناصل الدول الأوربية باستثناء روسيا[77] وبدعم من شيخ الإسلام[78] الذي أصدر فتوى بعزل السلطان عبد العزيز لإسرافه، واغتصابه حقوق الشعب ومخالفة أحكام الشريعة، تم الانقلاب في الثلاثون من شهر أيار عام1876 [79]، وشهد سراي ضولمة باغجة[80] عملية خلعه عن العرش[81] وتم تعيين السلطان مراد الخامس (1876)، وعقدت إنكلترا آمالها في سلطان مثل السلطان مراد الخامس وصدراً أعظم مثل مدحت باشا، فالمقصود النهائي للدول الأوربية القانون الأساسي ونظام

لوتكسي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، ط8، 1985، ص 377.

[74] بني المرجة، موفق: صحوة الرجل المريض، مؤسسة صقر الخليج، الكويت، 1984، ص 55.

[75]قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، ص 58.

[76]بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 55.

[77]الدهيبي، حسين: الدور السياسي للعلماء والأعيان شيوخ الحرف في مدينة طرابلس الشام (1840–1914)، إطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة بيروت العربية، 2016، ص 41.

[78]شيخ الإسلام: أعلى منصب ديني في الدولة العثمانية، وكان مسؤولاً عن تعيين القضاة وعزلهم والإشراف على التدريس والمدارس وإصدار الفتاوى الشرعية، واستخدم في نهايات القرن السابع عشر ميلادي.
صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية، ص 142.

[79]الأسدي، مدحت باشا والياً لسوريا، ص 285.

[80]سراي ضولمة باغجة: هو أكبر سراي أقيم في حي بشيكتاش على الساحل الأوربي في مدينة إستانبول، الساحة التي تنتشر عليها ملحقات السراي وقصوره يمتد تاريخ تزيينها منذ زمن السلطان بايزيد الثاني (1481–1512)، ثم ألحق به القصر الذي شيده السلطان سليم الثاني (1566–1574) وأضيفت إليه ملحقات في عهد السلطان أحمد الأول (1603–1617)، واكتملت كل منشآته وملحقاته في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.
المرسى، الصفصافي أحمد: إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1999، ص 131

[81]المرسى، إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة، ص 133.

الحكم المقيد ولم يكن للارتقاء بالدولة العثمانية وإعلاء شأنها بل لتحريض الشعوب والأديان المختلفة تحت شعار الحرية لتقسيم الدولة العثمانية لدويلات صغيرة.[82]

وكان لنبأ الانقلاب وقع حسن استقبله الناس بحماس في كل أنحاء الدولة العثمانية وفي أوروبا[83]، إلا أن السلطان مراد الخامس لم يستمر في الحكم سوى ثلاثة وتسعين يوماً بسبب سوء حالته العقلية[84] ولاستحالة شفاء السلطان مراد الخامس في المدى القريب، ولأن مدحت باشا من مؤيدي الحركة الدستورية كلفته هيئة الوزراء بقرار صدر عنها بالتفاوض مع عبد الحميد[85]، فوجد في عبد الحميد سلطاناً قد يتعاون معهم لإحياء الإمبراطورية المتهاوية.[86]

وقد تم تعيين السلطان عبد الحميد الثاني[87] عام 1876، بدلا من أخيه مراد الخامس[88]، وتم تتويجه في أيلول في مسجد بايزيد[89] بعد أن اشترط عليه مدحت باشا التنازل عن الحكم في حال شفاء مراد الخامس من مرضه[90]وإعلان القانون الأساسي

---

[82] كوندز، أحمد آق – أوزتوك، سعيد: الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، مصر، 2008، ص 422-423.

[83] برجاوي، سعيد: الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية، بيروت، 1993، ص 253.

[84] بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 55.

[85] أوغلي، عائشة عثمان: والدي السلطان عبد الحميد الثاني، دار البشير، عمان، ط1، 1991، ص 13.

[86] رامزور، تركية الفتاة وثورة 1908، ص 43.

[87] السلطان عبد الحميد الثاني (1876– 1909): تولى السلطنة عام 1876، وخلع عام 1909، توفي 1918، ومن أهم ما يكشف عن تاريخه هو الفهم العميق للمؤامرة اليهودية الصهيونية بكل أبعادها وأهدافها. للمزيد: الجندي، أنور: السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، دار ابن زيدون، بيروت، ط1، 1987، ص96.

[88] السلطان مراد الخامس (1876): ولد في 25 تموز 1848، تولى السلطنة بعد عزل عمه السلطان عبد العزيز، وعمره سبع وثلاثون سنة وعُزِل في العاشر من آب بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، للمزيد: شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي في (العهد العثماني)، المكتب الإسلامي، ط4، 2000، ص 181.

[89] مسجد بايزيد: بني في عهد السلطان بايزيد الثاني (1481–1512)، حيث أمر بإنشاء جامع يحمل اسمه في إستانبول، وبناه المعماري خير الدين، وتم الانتهاء منه عام 1506، وتم الاستغناء عن الأعمدة التي كانت موجودة في المساجد العثمانية السابقة.

زين العابدين، محمود: عمارة المساجد العثمانية، دار قابس، بيروت، ط1، 2006، ص 46.

[90] الأسدي، مدحت باشا والياً لسوريا، ص 285.

واستشارة الوزراء في أمور الدولة[91]، وباشتراك مدحت باشا في عملية خلع السلطان انتقل من مصاف رجال الحكم إلى عداد الثوار، ولا يستطيع أي سلطان أن يثق في رجل اشترك في عملية الخلع ولو كان الحاكم الجديد خصم الحاكم القديم[92]، فعينه السلطان عبد الحميد الثاني في منصب الصدر الأعظم وأمره بتشكيل لجنة برئاسته لوضع مواد الدستور، وتم طرح عدة مسودات، ليتم قبول المسودة التي وضعها مدحت باشا بعد إجراء بعض التعديلات[93].

و- مدحت باشا وإعلان الدستور 1876:

بعد تعيين مدحت باشا كصدر أعظم بأربعة أيام، أصدر إليه فرمان سلطاني لإعلان الدستور والمشتمل على مائة وتسع عشرة مادة، وتلاه في إستانبول في 23 كانون الأول 1876[94]، في احتفال كبير وتم تعميمه في كل أنحاء الدولة العثمانية من أجل مباشرة العمل بأحكامه[95]، وأهم ما جاء فيه بالنسبة لذلك العهد المساواة بين الملل، وحرية التعليم على أن يكون إجبارياً، وحرية المطبوعات، وإلغاء السخرة، ومنع المصادرة والتعذيب، وجعل اللغة التركية لغة رسمية للدولة العثمانية[96]، وقد مارس مدحت باشا ضغوطاً مستمرة على السلطان، وحاول تجنيد جيش تحت قيادته وأطلق عليه اسم جيش الأمة[97]، وأكد السلطان عبد الحميد الثاني أن مدحت باشا ورجاله كانوا يخططون لإغتياله والتخلص منه[98]، لإعادة أخيه مراد الخامس بعدما أشيع أنه تعافى[99]، فعزله

---

[91] أصاف، حضرة عزتلوا يوسف بك: تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، ط1، 1995، ص 46.

[92] بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص 56.

[93] عبد القادر، عصمت: دور النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني، دار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2006، ص 25- 26.

[94] فريد بك، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة محمد أفندي، مصر، ط2، 1896، ص 328.

[95] أبو ميزر، ابتسام: سنتان مفصليتان في حكم الإمبراطورية العثمانية، مذكرة ماستر، جامعة بيرزيت، فلسطين، 2017، ص 4.

[96] البارودي، فخري: مذكرات البارودي، دار الحياة، بيروت، دمشق، 1951، ص 78.

[97] كولن، صالح: سلاطين الدولة العثمانية، دار النيل، القاهرة، 2014، ص33.

[98] الثاني، مذكراتي السياسية، ص71.

[99] شاكر، التاريخ الإسلامي في (العهد العثماني)، ص 186.

السلطان من منصبه في 5 شباط عام 1877 ونفاه بتهمة الخيانة العظمى[100]، ولم تدم صدارته سوى ثمانية وأربعون يوماً[101]، فبعد أن نجح مدحت باشا في سن قانون للنفي كان أول شخص ينفى وفقاً له، ولما سأل مدحت باشا السلطان عبد الحميد الثاني عن سبب نفيه أجابه أن المادة مئة وثلاثة عشرة[102] من الدستور تخول السلطان حق إبعاد الأشخاص الذين ترى فيهم مديرية الشرطة أن وجودهم يشكل خطر على الأمن والنظام،[103] وقد أمر السلطان عبد الحميد الثاني بدفع مبلغ من المال لمدحت باشا كمصاريف طريق له فرفض مدحت باشا قبولها[104]، وبعد نفيه إلى أوروبا أعطي له حرية اختيار البلد الذي يحب الذهاب إليه فاختار إيطاليا، ومنها تنقل بين عدة بلدان أوروبية، ثم كتب عدة رسائل يسترحم فيها السلطان ويطلب منه السماح له بالعودة، فكان السماح من السلطان مشروطاً بإقامته مع عائلته في جزيرة[105] كريت،[106] وبعد أربعة أشهر من إقامته فيها عينه السلطان والياً على دمشق عام 1878.

[100] بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس– منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1968، ص 589 .

[101]قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، ص 71.

[102]المادة مئة وثلاثة عشر: تنص على أنه من ثبت عليهم بتحقيقات إدارة الضابطة الموثوقة بأنهم أخلوا بأمنية الحكومة يكون إخراجهم من الممالك المحروسة وتبعيدهم عنها منحصراً بيد اقتدار الحضرة السلطانية.

فارس، سليم: كنز الرغائب في منخب الجوائب، ج6، مطبعة الجوائب، الأستانة، ط1، 1961، ص 26.

[103] قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، ص 68.

[104]طوباش، عثمان نوري: العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، تر: محمد حرب، دار الأرقم، إستانبول، 2016، ص 204.

[105]جزيرة كريت: تقع في البحر المتوسط، وهي كثيرة الجمال ذات طبيعة قاسية وأرض وعرة، فتحها العثمانيون في الثامن عشر من أيلول عام 1699 بعد حصار دام سنتين وثلاثة أشهر وسبع وعشرين يوماً.

س. موستراس: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، تر: عصام محمد الشحادات، دار ابن حازم، بيروت، ط1، 2002، ص 421.

[106]علي، أورخان محمد: السلطان عبد الحميد الثاني، بيوك جاملجة، إستانبول، ط4، 2008، ص 132.

ز- ولاية مدحت باشا على سوريا 1878-1880:

تلقى مدحت باشا أمراً أثناء وجوده في جزيرة كريت بتعيينه والياً على سوريا،[107] وكان مدحت باشا كما ذكر في مذكراته قد وصل الى سن الشيخوخة وتعب فكره وضعفت قواه، ومع كل هذا فقد عول على إصلاحها قائلاً: "إن حب الإصلاح قد اختلط بدمي فكان كالمرض المزمن الذي لا يبرأ منه"[108]، واستمرت ولايته مدة سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام،[109] وكانت أحوال الولاية تحتاج الى إصلاح سريع، ويؤكد ذلك التقارير التي أرسلها مدحت باشا الى إستانبول حول ضرورة إجراء إصلاحات في الولاية والتي تعاني من الضعف الإداري،[110] فقد كان مدركاً لأهمية إصلاح الإدارة المدنية قبل باقي مفاصل الولاية لأنها أكثر تماساً مع الأهالي لتكون مفتاح باقي المؤسسات الحكومية الأخرى التي لا تقل أهمية عنها، كما حاول أن ينهض بواقع الولاية المالي فعمل على تنظيم الضرائب والرسوم وفق القوانين التي أصدرتها الدولة العثمانية،[111] وكذلك شكل دوائر العدلية والبوليس والدرك، وعزم على كشف نهر بردى من ساحة المرجة الى باب توما، وهدم الأبنية على أطرافه، وإقامة شارعين عظيمين على يمينه ويساره وأسس مكتب الصنائع،[112] وأنشأ السوق الشهير باسمه سوق مدحت باشا، وبنى العديد من المدارس الحديثة، ودعم جمعية المقاصد الخيرية وشهد عهده تعاون المسلمين والمسيحيين لتأسيس غرفة تجارة دمشق، ووسع كثيراً من شوارع دمشق وشق الطرق الجديدة،[113] وأنشأ خط الترامواي بين طرابلس الشام والمينا وعمد الى ترقية التجارة

[107]قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، ص 75.

[108]حتاته، مذكرات مدحت باشا، ص 36.

[109]المنجد، صلاح الدين: ولاة دمشق في العهد العثماني، دار الكتب المصرية، دمشق، 1949، ص 93.

[110]هيشر، العراق في عهد مدحت باشا، ص 32.

[111]الأسدي، مدحت باشا والياً لسوريا، ص 288.

[112]المنجد، ولاة دمشق في العهد العثماني، ص 93.

[113]سركو، ماري: دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني، الهيئة العامة السورية، وزارة الثقافة، دمشق.

والزراعة، وقضى على تمرد الدروز[114]، وأنهى الخلافات وأطلق حرية المطبوعات ونشط الكتاب والأدباء والشعراء[115] وبالرغم من المحاولات التي بذلها مدحت باشا في ولاية سوريا إلا أنه لم يستطع إنجاز إصلاحات حقيقية مقارنة بما حققه في فترة حكمه لولاية بغداد، كما ظهر أثناء ولايته عليها شعارات على جدران بيروت ودمشق عام 1880 تدعو الناس الى الثورة والعصيان على العثمانيين، وكان السلطان عبد الحميد مدركاً لقوة شخصية مدحت باشا على الصعيد الداخلي والخارجي[116] فخشي السلطان أن يحول الولاية لقطر مستقل ولذلك وصلت برقية من إستانبول بعزل مدحت باشا عن ولاية دمشق وتعيينه والياً على أزمير.[117]

ح- ولايته على أزمير 1880-1881:

كانت ولاية أزمير[118] في خلل واضطراب،[119] وتحتاج لإصلاحات كثيرة أولها القضاء على الأشقياء وقطاع الطرق حيث كثر فيها أشقياء الأجانب والوطنيين ولم تكن هناك وسيلة لإعادة الأمن الى نصابه، غير إيجاد عدد من عساكر الضابطة، فأحدث فرقاً من البوليس والجندرمة، وتمكن بذلك من إعادة الأمن خلال مدة قصيرة،[120] ثم عكف على إصلاح شؤون الولاية لكن خصومه قاموا بتفسير شؤون الإصلاح بطريقتهم الخاصة غير الصحيحة، ونتيجة لذلك قام الباب العالي برفض كل المشاريع

---

[114]الدروز فرقة باطنية، تؤله الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أخذت جل عقائدها من الإسماعيلية، وتنسب إلى نشتكين الدرزي، نشأت في مصر، لكنها لم تلبث أن هاجرت إلى بلاد الشام، عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار، كما أنها تؤمن بسرية أفكارها فلا تنشرها على الناس ولا تعلمها لأبنائها إلا إذا بلغوا سن الأربعين.
نبهان، يحيى محمد: معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا العلمية، عمان، ط1، 2008، ص 144.

[115]محمد، أحمد صالح علي: الصراع بين السلطان عبد الحميد ومدحت باشا، مجلس البحوث التاريخية، جامعة الزقازيق، مصر، 2018، ص91.

[116]الأسدي، مدحت باشا والياً لسوريا، ص 290.

[117]حتاته، مذكرات مدحت باشا، ص 44.

[118]أزمير: مدينة تركية، تقع على خليج في الأرخبيل، مركز ولاية آيدين ولواء صوغله.
س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ص 52.

[119]زيدان، جرجي: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج1، هنداوي، القاهرة، 2012، ص 304.

[120]حتاته، مذكرات مدحت باشا، ص 44.

الإصلاحية التي تقدم بها مدحت باشا، وأرسل المابين[121] عدداً من الجواسيس لمراقبة مدحت باشا، كما قامت بعض الصحف اليونانية بشن حملة شديدة اللهجة على الدولة العثمانية فقيل في العاصمة أن مدحت باشا حرّض تلك الصحف لكتابة تلك المقالات، ثم نشرت صحف الدولة العثمانية أن مدحت باشا قد جن جنونه ولا بد من عزله من ولاية أزمير،[122] ولم يطل بها مقامه حتى تحركت مسألة وفاة السلطان عبد العزيز، واتهم مدحت باشا بقتله.[123]

4- محاكمة مدحت باشا 1881:

أمر السلطان عبد الحميد الثاني، وبعد خمس سنوات من وفاة عمه السلطان عبد العزيز، بفتح قضية مقتل عمه ومحاولة كشف المتورطين في الجريمة،[124] وأشيعت الإشاعات أنه لم ينتحر وإنما قتل بإيعاز من مدحت باشا وأصحابه، وبلغَ مدحت وهو في أزمير أنه يراد القبض عليه والتحقيق معه،[125] وفي السابع عشر من آذار عام 1881 أيقظوا مدحت من نومه في بيته في أزمير وأخبروه أن الجنود على وشك تطويق البيت، فخرج من الباب الخلفي واتجه الى القنصلية الفرنسية لكون القنصلية الإنكليزية بعيدة عن بيته، فكان بذلك أول شخص شغل منصب الصدارة العظمى يلتجأ الى قنصلية بلد أجنبي طالباً للحماية،[126] فأمر السلطان عبد الحميد الثاني القنصلية الفرنسية بتسليم مدحت باشا فوراً دون تأخير، وفي الثالث والعشرون من أيار وصل

---

[121]المابين: الديوان الملكي أي باب ما بين الباب العالي والباب الهمايوني ومخصص لنقل أوامر السلطان الى الصدر الأعظم.

عامر، محمود: المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، العددان 117-118، المجلد 1، العدد 2، 2013، ص 378.

[122]محمد، الصراع بين السلطان عبد الحميد ومدحت باشا، ص 93.

[123]أمين، أحمد: فيض الخاطر، عدد الأجزاء عشرة، هنداوي، القاهرة، 2012، ج5، ص 207.

[124] محمد، الصراع بين السلطان عبد الحميد ومدحت باشا، ص 94.

[125]أحمد أمين فيض الخاطر، مرجع سابق، ص 207.

[126] علي، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 135.

مدحت باشا الى إستانبول عن طريق البحر وتم اعتقاله بتهمة قتل السلطان عبد العزيز وعيَّب السلطان عبد الحميد الثاني على مدحت باشا لجوؤه الى القنصلية الفرنسية وإن هذه الحادثة أحنت رأس العثماني أمام الصديق وأمام العدو،[127] وقُدِّم في السابع والعشرين من حزيران عام 1881 الى محكمة[128] يلدز،[129] وظلت المحكمة في انعقاد دائم من السابع والعشرين الى التاسع والعشرين من حزيران، وجلساتها علنية ومفتوحة لكل الناس وفي آخر أيام انعقاد المحكمة في التاسع والعشرين من حزيران قام رئيس المحكمة بنطق الحكم على مدحت باشا بالإعدام،[130] وعندما أدان القضاء مدحت باشا بقتل السلطان عبد العزيز، لم ينس السلطان عبد الحميد الثاني الدور الإيجابي في وزيره حيث قال: "في الحقيقة كنت دائم التخوف من مدحت باشا ولكن وقت صدور حكم المحكمة رأيت أن إنساناً معروفاً بهذا القدر يستوجب ألا ينفذ فيه حكم الإعدام"[131] ثم ما الفائدة فيما لو قتلته؟ بكل تأكيد إنني لن أفيد شيئاً إذا وضعت عدوي في مصاف الشهداء،[132] لذلك تمهل السلطان عبد الحميد الثاني في المصادقة على حكم الإعدام، وخفف الحكم بالنفي والسجن المؤبد،[133] ونقل مدحت باشا الى قلعة الطائف نفياً وحبساً في السجن العسكري،[134]وحاولت إنكلترا تهريبه على ظهر بارجة إنكليزية من منفاه في

[127]حرب، محمد: السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، ط1، 1990، ص 74.

[128]محكمة يلدز: قصر عثماني يتكون من عدد كبير من الأجنحة والدور، يقع في إستانبول، كان مقر السلطان عبد الحميد، ومن هناك كان يدير شؤون الدولة العثمانية.

محفوض، زين الدين وحيد: الإدارة العثمانية في مرحلة التنظيمات (1839–1909)، رسالة ماجستير، جامعة تشرين 2016، ص 110.

[129]حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، ص 75.

[130] محمد، الصراع بين السلطان عبد الحميد ومدحت باشا، ص 95–98.

[131]حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، ص 75.

[132]حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، ص 79.

[133]علي، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 139.

[134]حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، ص 47.

الطائف إلا أنها فشلت في ذلك، فبقي في السجن الى أن توفى[135] خنقاً بوسادته في ليلة العشرين من نيسان عام 1884، بعد عدة محاولات لسمه منها (باللبن والماء).[136]

- **الخاتمة:**

مدحت باشا من الشخصيات التي استطاعت ترك بصمات واضحة على سير الأحداث في الدولة العثمانية، حيث كان له دور فعال في صياغة الإدارة العثمانية، فاستحق بجدارة لقب أبو الدستور، وأبو الأحرار، حيث انتهج سياسة إصلاحية تهدف إلى تحسين واقع الولايات التي تولى عليها، وجعلها تلحق بركب الحضارة والتقدم، وعليه فإن المجهودات التنظيمية التي بذلها مدحت باشا تؤكد أنه كان رجلاً من طراز فريد مؤمناً بفكرتهِ الإصلاحية على الرغم من الصعوبات التي واجهته.

- **نتائج الدراسة:**

- شخصية مدحت باشا من الشخصيات البارزة في الدولة العثمانية والتي حازت على جانب كبير من الدراسة حيث أثارت شخصيته الجدل وكانت موضع نقاش وجدال بين كثير من المؤرخين.
- إن البيئة التي نشأ فيها مدحت باشا جعلت منه رجلاً مصلحاً مستنيراً يسعى لإصلاح شؤون الدولة العثمانية والولايات التابعة لها، حيث استطاع لفت الأنظار إليه وهو في سن مبكر، فترقى من أصغر وظيفة في الحكومة العثمانية الى منصب الصدارة العظمى.
- ساهم بشكل بارز في بث روح الإصلاح والتجديد في الدولة العثمانية والولايات التي تولى عليها، وعمل على تحقيق بعض التقدم والإصلاح في شتى المجالات.

[135] حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، ص75.

[136] حتاته، مذكرات مدحت باشا، ص 89-90.

- لم تكن إصلاحات مدحت باشا لتعبر عن سياسة جديدة للدولة العثمانية ورغبتها في الإصلاح وحسب بل كانت تعبر عن روح إصلاحية عُرِفَ بها مدحت باشا ولازمته خلال حكمه للولايات التي تولى عليها.
- يصح أن تكون أعمال مدحت باشا نموذجاً للمثل العليا في باب الخدمة العامة، تتجلى فيه إمكانيات الفرد الواحد وما يستطيع أن يقوم به من أعمال جسيمة حتى في الأحوال الشاذة، وذلك إذا اتخذ الإخلاص رائداً لهُ والجد شعاراً لجهده.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

المصادر:

1. الثاني. عبد الحميد، مذكراتي السياسية، تر: علي وهبي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1977.
2. حتاته. يوسف كمال بك، مذكرات مدحت باشا، مطبعة هندية، مصر، ط1، 1907.
3. حرب محمد، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، ط1، 1990.
4. ساسون. عزراسمويل، مدحت باشا، مطبعة جرجي غرزوزي، الإسكندرية، 1910.
5. فارس سليم، كنز الرغائب في منخب الجوائب، ج6، مطبعة الجوائب، الأستانة، ط1، 1961.
6. فريد بك محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، ط1، 1981.
7. فريد بك محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة محمد أفندي، مصر، ط2، 1896.
8. لهارد. انكه، تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، تر: محمود علي عامر، دار رسلان، دمشق، 2017.
9. لونكرك. ستيفن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، تر: جعفر الخياط، مطبعة الأهلية، بغداد، 1941.

المراجع العربية:

1. أصاف. حضرة عزتلوا يوسف بك، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، ط1، 1995.
2. الأعظمي. علي ظريف، مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، مطبعة الفرات، بغداد، 1926.
3. أمين. أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948.
4. الجندي. أنور، السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، دار ابن زيدون، بيروت، ط1، 1987.
5. أوغلي. عائشة عثمان، والدي السلطان عبد الحميد الثاني، دار البشير، عمان، ط1، 1991.
6. البارودي. فخري، مذكرات البارودي، دار الحياة، بيروت، دمشق، 1951.
7. برجاوي. سعيد، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية، بيروت، 1993.
8. بطي. رفائيل، الصحافة في العراق، معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية، 1955.
9. بني المرجة. موفق، صحوة الرجل المريض، مؤسسة صقر الخليج، الكويت، 1984.
10. الجميل. سيار، تكوين العرب الحديث، دار الشروق، عمان، ط1، 1997.
11. زيدان. جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج1، هنداوي، القاهرة، 2012.
12. زين العابدين. محمود، عمارة المساجد العثمانية، دار قابس، بيروت، ط1، 2006.
13. سركو. ماري، دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني، الهيئة العامة السورية، وزارة الثقافة، دمشق.

14.شاكر. محمود، التاريخ الإسلامي في (العهد العثماني)، المكتب الإسلامي، ط4، 2000.
15.الشرقاوي. أحمد، جغرافية الممالك العثمانية، دار البشير، ط1، 2018.
16.الشناوي. عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980.
17.الصباغ. عبد اللطيف، تاريخ الدولة العثمانية، بنها، 2013.
18.طربين. أحمد، تاريخ المشرق العربي المعاصر، المطبعة الجديدة، دمشق، 1986.
19.طقوش. محمد سهيل، تاريخ العراق الحديث والمعاصر، دار النفائس، بيروت، ط1، 2015.
20.عبد القادر. عصمت، دور النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني، دار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2006.
21.العلاف. عبد الكريم، بغداد القديمة، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1960.
22.علي. أورخان محمد، السلطان عبد الحميد الثاني، بيوك جاملجة، إستانبول، ط4، 2008.
23.عمر. عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (1516–1922)، دار النهضة العربية، بيروت، 1984.
24.عوض. لويس، الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.
25.فيض الخاطر. أحمد أمين، ج5، هنداوي، القاهرة، 2012.
26.قلعجي. قدري، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، دار العلم، بيروت، ط3، 1958.
27.الكرملي. أنستاس ماري، خلاصة تاريخ العراق، مؤسسة هنداوي، 2017.
28.كولن. صالح، سلاطين الدولة العثمانية، دار النيل، القاهرة، 2014.
29.كوندز. أحمد آق – أوزتوك. سعيد، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، مصر، 2008.

30.اللامي. فردوس عبد الرحمن كريم، الحياة الاجتماعية في بغداد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2017.
31.لوتكسي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، ط8، 1985.
32.محمد. أحمد صالح علي، الصراع بين السلطان عبد الحميد ومدحت باشا، مجلس البحوث التاريخية، جامعة الزقازيق، مصر، 2018.
33.المرسى. الصفصافي أحمد، إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1999.
34.المنجد. صلاح الدين، ولاة دمشق في العهد العثماني، دار الكتب المصرية، دمشق، 1949.
35.النجار. جميل موسى، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1991.
36.نظمي. وميض جمال عمر، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، بغداد، ط2، 1985.
37.ياغي. إسماعيل أحمد، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1997.

المراجع المترجمة:

1. أورتايلي. ايلبير، العثمانيون في ثلاث قارات، تر: عبد القادر عبد اللي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2014.
2. بروكلمان. كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فارس– منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1968.
3. دولينا. أنينل اسكندرفنا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية، تر: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002.
4. رامزور. ارنست، تركية الفتاة وثورة 1908، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة فرنكلين، بيروت، 1960.
5. طوباش. عثمان نوري، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، تر: محمد حرب، دار الأرقم، إستانبول، 2016.
6. مانتزان. روبير، تاريخ الدولة العثمانية، تر: بشير السباعي، ج2، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1992.

المعاجم:

1. الخطيب. مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ط1، 1996.
2. بركات. مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب، القاهرة، 2000.
3. س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، تر: عصام محمد الشحادات، دار ابن حازم، بيروت، ط1، 2002.
4. صابان. سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.
5. صابان. سهيل، معجم الألفاظ العربية في اللغة التركية، الرياض، ط1، 2005.
6. نبهان. يحيى محمد، معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا العلمية، عمان، ط1، 2008.

إطروحات الدكتوراه:

1. الدهيبي. حسين، الدور السياسي للعلماء والأعيان شيوخ الحرف في مدينة طرابلس الشام (1840–1914)، إطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة بيروت العربية، 2016.
2. نوار. عبد العزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968.

مذكرات الماستر

1. أبو ميزر. ابتسام، سنتان مفصليتان في حكم الإمبراطورية العثمانية، مذكرة ماستر، جامعة بيرزيت، فلسطين، 2017.
2. إيمان. سليماني، الوالي مدحت باشا ونشاطه في الدولة العثمانية بين العمالة والإخلاص (1822–1884)، مذكرة ماجستير، الجزائر، جامعة بو ضياف، 2019.
3. بعيو. غانية، التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية، مذكرة ماستر، جامعة الجزائر، 2009.
4. تقروت. أحلام – أوسال. حياة، إصلاحات مدحت باشا في العراق، مذكرة ماستر، جامعة الجيلالي، 2015.
5. تومي. حمزة، الإصلاحات العثمانية بين المتطلبات الداخلية والضغوط الأوروبية، مذكرة ماستر، جامعة محمد بو ضياف، 2015.
6. حسين. شايب الذقن، إصلاحات مدحت باشا في العراق، مذكرة ماستر، جامعة محمد بو ضياف، 2015.
7. كاظم. محمد جودي – محيسن. يسرى، قانون التجنيد العسكري العثماني وتطبيقه في ولايات العراق الثلاث، مذكرة ماستر، جامعة القادسية، 2018.

8. محفوض. زين الدين وحيد، الإدارة العثمانية في مرحلة التنظيمات (1839-1909)، مذكرة ماستر، جامعة تشرين، 2016.
9. هيشر. منيرة، العراق في عهد مدحت باشا، مذكرة ماستر، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2018.

الموسوعات:

1. شامي. يحيى، موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993.

الدوريات (مقالات- مجلات- دراسات):

1. الأسدي. كاظم، مدحت باشا والياً لسوريا، مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد السابع، العدد الثاني، 2009.
2. عامر. محمود، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، العددان 117-118، المجلد 1، العدد 2، 2013.
3. عبد الرزاق. صلاح، إصلاحات مدحت باشا في بغداد، مجلة الزمان، دراسة (3-4)، 2019/11/23.
4. نصار. عبد العظيم عباس، الأراضي الأميرية في وثائق عثمانية، مجلة كلية التربية والعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، المجلد 4، العدد 6-7 2010.

دراسة ديموغرافيّة تحليلية لواقع مرض نقص المناعة البشرية/الإيدز في الجمهورية العربية السوريّة خلال الفترة (1987– 2020)

سيلين جميل شاهين طالبة دكتوراه بكلية الآداب – جامعة تشرين / قسم علم الاجتماع/اختصاص علم السكان

أ.م.د مدى شريقي /استاذ مساعد بجامعة تشرين/ قسم علم الاجتماع

الملخص□

هدف هذا البحث إلى التعرف على واقع مرض نقص المناعة البشرية/الإيدز في الجمهورية العربية السورية من حيث الأرقام المسجلة منذ تأسيس مركز مكافحة الأمراض السارية والمزمنة، وإجراء المقارنات للبيانات خلال الفترة السابقة للحرب على سورية والفترة اللاحقة، ومحاولة التعرف على أثر الحرب على سورية في انتشار المرض محلياً. وعليه تمّ إجراء المقابلات مع الأطباء المسؤولين عن برنامج الأمراض السارية والمزمنة في كل من محافظتي دمشق واللاذقية كأداة للتعرف على آلية العمل والكشف عن الحالات المشتبه بإصابتها والإصابات المؤكدة. ومع استحالة إجراء مقابلات شخصية مع المصابين بالمرض حفاظاً على خصوصية الحالات وسريتها، ارتكزت الباحثة بشكل رئيس إلى تجميع البيانات المتوافرة من أكثر من مصدر وتبويبها وتحليلها.

وجاءت النتائج لتوضح أنّ أغلب الحالات المصابة تركّزت وعلى التتالي في المحافظات: دمشق في المرتبة الأولى ثمّ حلب فاللاذقية، وحمص وطرطوس في المرتبة الرابعة، ثم السويداء في المرتبة الخامسة ثم حماه تلتها محافظة ريف دمشق. كما أظهر البحث تركز الإصابات في الفئة العمرية من 25–35 كانت الأعلى انتشاراً بين باقي الفئات العمرية

الكلمات المفتاحية: ديموغرافيا، ديموغرافيا سورية، صحة، أوبئة، نقص المناعة البشرية، الإيدز.

The reality of HIV/AIDS in the Syrian Arab Republic during the period (1987-2020) Demographic and analytical study

Celine Jamil Shaheen/ PhD student

Dr. Mada Shuriqi

□Abstract□

This research aimed to identify the reality of HIV/AIDS in the Syrian Arab Republic according to the available data, recorded by the Center for Control of Communicable and Chronic Diseases, since its establishment. It also carried out comparisons between the situation during the period before the war on Syria and the subsequent period. Moreover, it tried to identify the how the war on Syria affected the local prevalence of the disease.

Therefore, interviews were lead with doctors who are in charge of the Communicable and Chronic Diseases Program in both Damascus and Lattakia governorates. Those interviews are used as a scientific tool, in order to identify the mechanisms of the program, and the methods it uses to detect suspected cases and confirmed infections. As it was impossible to interview the patients in order to protect their privacy and confidentiality, the researcher based the work on the classifying and analysing of available data from more than one source.

The results show that most of the infected cases were concentrated in the governorates in the following order: Damascus in the first place, then Aleppo, Latakia, Homs and Tartus in fourth place, then Sweida in fifth place, then Hama, followed by the province of Rural Damascus.The research also showed that the prevalence of infections in the age group 25 –32 was the highest compared to other age groups

Keywords: *Demographics, Syrian demography, Health, Epidemics, HIV, AIDS.*

مقدمة:

عرفت البشرية خلال تطورها العديد من الأوبئة التي كادت تفتك بالجنس البشري وتهدد وجوده، إلاّ أنّ البشر استطاعوا- وفي كثير من الأمثلة- التصدي لمعظم الأمراض والأوبئة والتغلب عليها أو التخفيف من آثارها في الحدّ الأدنى. ومن هذه الأمراض كان الطاعون، والجدري، والملاريا، وشلل الأطفال، والتهاب الكبد، وانفلونزا الخنازير وغيرها من الأمراض التي تختلف من حيث المنشأ والخطورة وطرق العدوى والانتشار وسبُل العلاج.

يمكن القول إنّ تاريخ البشرية الحافل بعقود من تفشي الأوبئة مازال حاضراً ومستمراً مع مطلع القرن الحادي والعشرين–رغم التطور العلميّ الكبير– بظهور وتفشي الأوبئة الجديدة كليّاً على البشر، والتي لها من الآثار ما قد يكون أكثر تطوراً وخطورة عن سابقاتها من الأوبئة في كثير من الحالات.

إنّ الحديث عن مجمل الأوبئة التي عايشتها البشرية في وقت سابق هو موضوع متشعب، ويلزمه مساحة أكبر من البحث والتقصي، وهذا ما يستحيل علينا في بحثنا هذا، لذا سنكتفي بالتوجه لعرض أهم النقاط بما يتعلّق بأحد أبرز الأوبئة التي عايشتها البشرية في القرن المنصرم، وماتزال حالات الإصابة والعدوى به حاضرة في عصرنا هذا، إنّه فيروس الإيدز الذي ومنذ اكتشافه في القرن الماضي– إلى يومنا هذا– بقي دون علاجٍ شافٍ.

وكل ما تمكن العلماء منه في محاولتهم للقضاء على هذا المرض الفتاك كان في نهاية المطاف هو إيجاد بعض العقاقير والأدوية التي تعمل على الحدّ من تفشيّ هذا المرض بشكل سريع والتقليل من آثاره في جسد المريض المصاب بالإيدز.

يصنّف هذا المرض "نقص المناعة البشرية/الإيدز" كوباء، باعتباره حالة مرضيّة سجلّت انتشاراً على مستوى العالم، ويكاد لا يخلو منها مكان جغرافيّ على المستوى الدوليّ،« إذ تسبب الفيروس بإصابة 76 مليون شخص ووفاة حوالي 33 مليون شخص منذ بدء انتشاره خلال الفترة الممتدة بين 1987–2019»(مرصد الصحة العالمية، https://www.who.int/data/gho/، 2021)، ولم يقتصر هذا الانتشار الجغرافيّ على مكان منشأ هذا المرض لا في الأمريكيتين ولا في الدول الأوروبية أو حتى الإفريقية التّابعة لمنظمة الصحة العالميّة «حيث يعيش ما يقرب من شخص واحد من كل 25

بالغاً(3.7%) مصاباً، ويمثّل أكثر من ثلثيّ الأشخاص المصابين بفيروس نقص المناعة البشريّ في جميع أنحاء العالم»(مرجع سبق ذكره، مرصد الصحة العالمية، 2021) ؛ وقد سجلّت منطقة الشرق الأوسط والوطن العربي الكثير من الحالات للإصابة بهذا المرض عبر الزمن، لكنها كما هو حال قطرنا لم تدخل حيّز الوباء وفقاً للمعايير الدوليّة التي تشترط وصول المرض لنسبة 1% من عدد السكان للقول بأنّ هذا المرض أو ذاك وصل من الانتشار حالة الوباء، هذا« وتشير التقديرات العالمية إلى أنّ عدد المتعايشين مع الفيروس بلغ 38 مليون شخص حتى أواخر عام 2019، كما انخفضت حالات العدوى بين عامي 2000 و2019 بنسبة 39%، والوفيات الناجمة عنه بنسبة 51%». (المرجع السابق نفسه، مرصد الصحة العالمية، 2021).

أمّا عن واقع هذا المرض في قطرنا العربيّ السوريّ فقد تمّ التعامل معه ومنذ اكتشاف أول حالة على مستوى الداخل السوريّ بشكل جدّي وحذر. ومن الممكن القول إنّ بداية اكتشاف هذا المرض أحدثت الكثير من الجدل وتسبّبت بحالة من الهلع الجمعيّ في الشارع السوريّ في بادئ الأمر. حيث ارتبط – وكأيّ مرض أو وباء ظهر حديثاً– بحالة عدم توفر المعلومات الكافية فيما يخصّ طبيعته وطرق العدوى والانتشار وطرق الوقاية والعلاج.

مشكلة البحث:

في خضمّ الأزمة السورية التي أوجدت الكثير من الظروف غير المسبوقة على كافة الأصعدة. كان للجانب الصحيّ نصيبٌ كبير من الضرر والدمار والتراجع في الأداء في مناطق كثيرة طالتها يد الإرهاب المسلّح. «حيث أثرت الأزمة الراهنة بشكل كبير على النظام الصحيّ، ما جعل الحاجة ملحّة إلى تحسين نظام مراقبة الأمراض ومراقبة المخاطر السلوكية لتكون تلك الأخيرة، قادرة على تقدير انتشار فيروس نقص المناعة البشرية بدقة».(منظمة الصحة العالمية/المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، 3 نوفمبر2020) في ظلّ الظروف الراهنة يكون المرضى بمثل هكذا مرض مزمن يستلزم إمكانات ومتابعة لصيقة عرضةً لتراجع الرعاية التي يحتاجونها.

فالاهتمام العالمي والمحلي لإيصال الرعاية الكافية لمثل هذه الفئة من السكان أينما وجدت وخاصة في حالات الحروب والطوارئ، يدفعنا نحن أيضاً كباحثين لعدم تجاهل كل ما يخصّ هذه الفئة من المرضى وهذا المرض وتبعياته، كما نحاول في بحثنا هذا جمع وتفسير ما أمكن عنه وعن حال المتعايشين معه على مستوى محليّ " قطرنا العربيّ السوريّ"، في غياب شبه تام للدراسات البحثية المحليّة التي تلقي الضوء على هذا المرض العالمي الذي تسبب بوفاة أعداد كبيرة من السكان حول العالم، ولم يكن قطرنا العربي السوري بمنأىً عن المخاطر المرتبطة به.

لكن بما أنّ سورية اعتبرت من بين الدول التي تسجّل أرقاماً منخفضة لحالات الإصابة بالإيدز، فقد بقي البحث في هذا المجال محدوداً جداً ومحصوراً في المسوح والتقارير التي يقوم بها المكتب المركزي للإحصاء ووزارة الصحة والجهات المحلية والدولية الداعمة في هذا المجال.

فالجمهورية العربيّة السوريّة تصنّف «من بين أدنى معدلات انتشار عدوى فيروس نقص المناعة البشري، ويقلّ معدل انتشار العدوى بالفيروس عن 2 لكل 100000 بين عموم السكان المتأثرين، وأقل من1% بين السكان الأكثر عرضة للخطر عام 2018».(مرجع سبق ذكره، منظمة الصحة العالمية/المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، 3 نوفمبر2020.) وقد اقتصر التعرّض لذكر الإيدز(HIV) على المسوح والتقارير التي يقوم بها المكتب المركزي للإحصاء والجهات المحلية والدولية الداعمة له، التي كانت توضح بشكل دوري مآل الحال بالنسبة للأرقام وحالة المتابعة للمتعايشين مع الإيدز حتى عام2011؛ الذي شكّل عاماً فارقاً على كافة الأصعدة. ما تسبب في حالة غياب تامّ وتجاهل عامّ لمآل الحالات المصابة بهذا المرض على الصعيد المحليّ.

وقبل الخوض في هذه الدراسة، تجدر الإشارة إلى أنّنا لاحظنا، بعد البحث والرجوع إلى أكثر من مصدر بيانات عن الأرقام الممثلة للمصابين والمتعايشين وحالات الوفاة بسبب هذا الوباء ومجال توزعه الجغرافي، وجود تباينات تكاد تطال حتى المصدر الرئيس نفسه " منظمة الصحة العالمية"، ولا تقتصر على المصادر والجهات المعنية عالمياً على

اختلافها، وعليه فإنّ الأرقام الواردة في البحث هي ما تمّ الاتفاق عليه في عدة مصادر سواء عالمياً أو محلياً.

وهنا يتبادر لأذهاننا مجموعة من التساؤلات تدفعنا للبحث والتقصّي ولو بشكل فرديّ في سعيٍ لإيجاد إجابات واضحة ومفسّرة للواقع، فعدم التطرّق للأرقام والحالات المستجدة تجعلنا في حيرة من أمرنا عن واقع هذا المرض ومآله، ممّا يضعنا بمواجهة تساؤل رئيس نسعى للإجابة عليه في هذه الدراسة وهو:

ماهي تطوّرات مرض نقص المناعة البشرية/ الإيدز في الجمهورية العربية السورية، مذّ ظهوره حتى العام 2020؟

أهمية البحث:

- لقد أدى "فيروس نقص المناعة البشرية" عند تطوره إلى ظهور "وباء الإيدز" الذي انتشر في كل أرجاء العالم. وهذا ما جعل منه حالة طارئة تسترعي كل الانتباه والحذر، «فقد تبيّن للعالم خلال العقدين الماضيين أنّ وباء فيروس نقص المناعة البشرية يمثّل حالة طوارئ عالمية».(صندوق الأمم المتحدة للسكان،2002،11). حيث «قُدّر عدد المتعايشين مع فيروس نقص المناعة البشرية بحوالي 40 مليون شخص حول العالم في العام 2004»(البرنامج الإقليمي للإيدز في الدول العربية/ برنامج الأمم المتحدة الإنمائيUNADIS، p.12.2011)، ما جعل أغلب دول العالم تضعه من أولوياتها ضمن مجموعة من الأمراض السارية والمعدية التي تحدّدها الخطط الصحية العامة. وتسبب حالات الطوارئ والحروب وعدم الاستقرار التي تصيب البلدان التي تنتشر فيها الأوبئة والأمراض الفيروسية زيادة خطر انتشار الأمراض التي كانت تحت السيطرة والمتابعة الصحية ما يتسبب في حالة فوضى وخروج بعض الحالات من دائرة الأمان إلى دائرة الإصابة بشكل أو بآخر. «فالمقاييس العالمية توضّح أنّ الوضع الوبائي لايزال مثيراً للقلق».(منظمة الصحة العالمية WHO/ المكتب الإقليمي لشرق المتوسط،2017، p.15)وتتبلور أهمية البحث بشكل أدق في التعرّف على حقيقة الأرقام على المستوى المحلي، لكل محافظة على حِدة في الجمهورية العربية السورية، وكيف يتم الكشف

عن الحالات المصابة بفيروس نقص المناعة البشرية، كما التعرف على آلية التعامل مع المتعايشين مع فيروس نقص المناعة البشرية، ومستجدات الحقوق وسبل العلاج المقدمة من قبل وزارة الصحة لهذه الفئة في قطرنا.

أهداف البحث:

وعلى ما ذُكر آنفاً؛ تُثار بعض التساؤلات المرحلية المهمة لغرض التعرف عن كثب على واقع حال هذا المرض في الجمهورية العربية السورية خلال السنوات (1987–2020). وهو ما جعل أهداف البحث تتمحور بشكل رئيسي حول التعرّف واستشراف:

- واقع الأرقام المسجلة في سورية منذ تأسيس مركز مكافحة الأمراض السارية والمزمنة.
- إجراء مقارنة للبيانات خلال الفترة السابقة للحرب على سورية والفترة اللاحقة.
- أثر الحرب على سورية، وواقع انتشار المرض محلياً.
- حال المصابين بهذا المرض قبل الحرب وأثناءها، وكيف يجري التعامل معهم محلياً.
- الخدمات المقدمة لمصابي مرض نقص المناعة البشرية/ الإيدز في الجمهورية العربية السورية.

أسئلة البحث:

1. هل ازداد عدد المصابين بمتلازمة نقص المناعة البشرية/ الإيدز خلال العقود الماضية.
2. هل أثرت الحرب والنزاعات المسلحة في انتشار الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز بين فترة ما قبل الحرب وبعدها وأثناءها.
3. هل تراجع مستوى الخدمات المقدمة لمصابي متلازمة نقص المناعة البشرية/ الإيدز قبل الحرب على سورية وأثناءها.

منهجية البحث:

تمّ الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي لإنجاز هذا البحث، حيث يمكن القول بأنّ هذا المنهج هو أنسب ما يكون لطرح وتفسير الظواهر المعاصرة، لكونه طريقة من طرق التحليل والتفسير العملي المنظّم من أجل الوصول إلى أقرب النتائج وأكثرها تحديداً لمشكلة اجتماعية وانسانية.(العساف،2006، p.189) كما قامت الباحثة بإجراء المقابلة مع الأطباء المسؤولين والمتابعين بشكل مباشر للحالات المتعايشة مع المرض في محافظتي دمشق واللاذقية.

حدود البحث:

الحدود المكانية: الجمهورية العربية السورية.

الحدود الزمانية: استغرق انجاز البحث وجمع المادة التطبيقية مدة ثمانية أشهر مقسّمة بين محافظتي اللاذقية ودمشق وذلك لإتمام إجراءات الموافقات الخاصة بجمع البيانات والإحصائيات التي تبتدئ بالأعوام التي سُجّلت فيها الحالات المصابة بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز بشكل رسمي عام 1987 حتى عام 2020. كما تسبب وضع جائحة كورونا – كوفيد19بالتأخر وعرقلة سير البحث في كثير من الأوقات.

أدوات البحث: تم الاعتماد على المقابلات كأداة لجمع المعلومات في هذا البحث، من الأطباء المسؤولين عن برنامج مكافحة الأمراض السارية والمزمنة في كل من محافظتي دمشق واللاذقية. بالإضافة إلى الاحصاءات الموجودة في مديرية الأراض السارية والمزمنة في محافظة دمشق، وذلك لعدم إمكانية الوصول لأية أرقام أو معلومات بهذا الخصوص إلاّ عن طريقها وبعد إجراء الموافقات اللازمة.

مصطلحات البحث (الكلمات المفتاحية):

- الإيدز: هو المصطلح العربي لمرض متلازمة العوز المناعي المكتسب.(نادية و السيد ،2002،p.11)
- متلازمة العوز المناعي المكتسب الايدز(AIDS): وهذه الأحرف هي الأحرف الأولى من القسم الطبي للمرض

Acquired Immune Deficiency Syndrome Virus وهي مجموعة الأعراض المرضية التي يدل ظهورها عند الشخص بأنه يعاني من نقص أو فقدان مناعته الطبيعية التي عادة ما تحمي الجسم ضد الأمراض الالتهابية والانتهازية وأمراض السرطان. (عطا الهرفي،1989)

- «متلازمة: تعني مجموعة الأعراض والعلامات المرتبطة ببعضها والتي تظهر مترافقة معاً .
- العوز: يعني الفقدان أو النقص الشديد في المناعة.
- المكتسب: يعني أنّه ليس وراثياً بل مرض مكتسب من البيئة الخارجية نتيجة السلوك غير الآمن من المصاب». (مرجع سبق ذكره، 2002، p.11.)
- فيروس نقص المناعة البشرية(HIV): وهي الأحرف الأولى واختصار Human Immunodeficiency Virus

وهو العامل المسبب لفيروس نقص المناعة البشري/ الإيدز، فهو فيروس من جنس الفيروسات البطيئة Lentivirus ينتمي إلى عائلة الفيروسات القهقرية Retroviridae وله نمطان متمايزان جينياً وظاهرياً هماHIV2 -HIV1.(منظمة الصحة العالمية/البروتوكول العلاجي للمتعايشين بعدوى فيروس نقص المناعة البشرية، 2016، p.8.)

الدراسات السابقة:

- **دراسة: النابر (2004)، السودان.** [1]

أهداف الدراسة: لقد هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على الأبعاد الاجتماعية والنفسية للمصابين بمرض الإيدز في السودان، واستشراف الأسباب الحقيقية لهذا المرض من النواحي الاجتماعية والنفسية وما ينتج عنها من آثار أدت إلى انتشار بعض الظواهر التي تعتبر مسبباً رئيسياً لانتقال العدوى بهذا المرض في المجتمع السوداني كالعمل بالدعارة.

عينة الدراسة: شملت العينة مرضى الإيدز في محافظة الخرطوم.

أدوات الدراسة: اعتمدت هذه الدراسة الوصفية التحليلية في منهجها على دراسة الحالة، حالة محافظة الخرطوم في السودان على وجه التحديد.

أهم النتائج: توصل الباحث إلى مجموعة نتائج منها:

– تركّز حالات الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية في السودان ضمن الفئة العمرية (15–35) عاماً بشكل كبير.

– عدم وجود علاج للإيدز حتى العام 2004 .

– أشهر العقارات المساعدة في الحدّ من انتشار المرض بشكل قهقري في جسم المصاب بالفيروس كان AZT، وهذا العقار من شأنه أن يطيل الفترة التي يحياها المريض وتقليل المضاعفات والتطورات التي تعجل بالموت. وعدم علاج مرض الإيدز بهذه السبل المتاحة يسرّع في انتهاء الحياة.

– لا يوجد حل لهذه المشكلة الفيروسية إلاّ عن طريق تجنّب الإصابة بواسطة اتباع الطرق المأمونة في الاتصال الجنسي والتقيد والالتزام بالعادات المجتمعية.

[1] محمد علي، النابر، الأبعاد الاجتماعية للإيدز في السودان /دراسة حالة الخرطوم- رسالة ماجستير في علم الاجتماع ، جامعة الخرطوم، 2004.

- **دراسة: برنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز ومنظمة الصحة العالمية وآخرون (2009)، هاييتي.**[1]

أهداف الدراسة: انطلقت هذه الدراسة من مجموعة أهداف رئيسية هي: الإسراع بالتقدم نحو تحقيق الأهداف المتفق عليها في المؤتمر الدولي للسكان والتنمية والأهداف الإنمائية للألفية وخاصة تلك التي تعمل على الحدّ من الفقر، تعزيز المساواة بين الجنسين وتمكين المرأة، تطوير صحة الأم، القضاء على فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز، إتاحة فرص الحصول على الخدمات المتعلقة بالصحة الجنسية والانجابية.

عينة الدراسة: تم اختيار هاييتي كعينة للدراسة باعتبارها توصّف حالة من أقدم الحالات الوبائية لانتشار فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز في هذه الدراسة التطبيقية لمجموعة الاتفاقيات والنظريات المشتركة بين مجموعة الشركاء المهتمين بالقضايا السكانية والصحية على حدّ سواء، كما أنها تملك أكثر المعدلات ارتفاعاً لعدوى فيروس نقص المناعة البشرية في العالم خارج نطاق البلدان الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

أدوات الدراسة: تضمنت الدراسة عرضاً لمجموعة من الإحصاءات الحيوية المتعلقة بموضوع الدراسة للفترة 2000 –2005، وتم وضع استبيان للمستفيدين الذين يلتمسون المشورة والاختبارات الطوعية الخاصة بفيروس نقص المناعة البشرية.

أهم النتائج: تُظهر النتائج أنّ الوصمة الاجتماعية والتمييز لا يزالان يشكلان عقبات يجب تخطيها كما تؤثر الوصمة الاجتماعية والخوف المحيط بالعدوى في شكل عكسي على درجة الحصول على المشورة والاختبارات الخاصة بفيروس نقص المناعة البشرية وعلاوةً على ذلك، يحجم الأفراد عن إجراء الاختبارات في حالة عدم رؤيتهم لميزة واضحة لمعرفتهم بحالتهم. كذلك تشكل الملاءمة وسهولة الاستخدام اعتبارات

[1] برنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز وآخرون، الربط بين الصحة الجنسية والانجابية والخدمات المتعلقة بفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز مدخل إلى التكامل : دراسة حالة هاييتي توفير المشورة والاختيارات الطوعية الخاصة بفيروس نقص المناعة البشري: نقطة وصول إلى خدمات الصحة الجنسية والانجابية الشاملة، برنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشري/ الإيدز ومنظمة الصحة العالمية وآخرون، 2009.

حيوية في تشجيع الأفراد على الحضور إلى مستوصفات التماس المشورة والاختبارات الطوعية ومستوصفات الصحة الإنجابية.

*** دراسة:**

A.K.M.Idris, E.Elsaman and others(2011), Sudan. [1]

أهداف الدراسة: هدفت الدراسة إلى معرفة اتجاهات النساء الحوامل واستعدادهن لإجراء اختبارات طوعية لكشف الإصابة بفيروس العوز المناعي البشري.

عينة الدراسة: أُجريت هذه الدراسة القاعدية(الاستكشافية)عام2011على عينة عشوائية من النساء الحوامل ضمت 500 امرأة في مرحلة الحمل يترددن إلى عيادات الرعاية السابقة للولادة في مشفى الولادة في أم درمان، تحت رعاية مجلس طب المجتمع السوداني.

أدوات الدراسة: تمّ استخدام المقابلة كأداة للدراسة.

أهم النتائج: جاءت النتائج كمؤشرات تبين أنّ النساء الحوامل بعمر أقل من 30عاماً كان لديهن قبول لإجراء كشف فيروس نقص المناعة البشري أكثر من غيرهن، كما كان لعامل التعليم مؤشر إيجابيّ في هذا القبول، وكذلك لعدد سنوات الزواج، كما برز وبشكل لافت العامل الديني وأثره في كون المرأة الحامل تنتمي للديانة الإسلامية أو لغيرها من الديانات. هذا وتشكل النساء العاملات في هذه الدراسة النسبة الأكبر من جهة الاستعداد لإجراء الاختبار على عكس النساء الحوامل غير العاملات. وقد أعربت نسبة40.3% من العينة، أي231 امرأة حامل، عن عدم رغبتها في الخضوع لاختبار الكشف عن فيروس نقص المناعة البشري دون موافقة الزوج أولاً. كما أنّ بعض النساء رفضن إجراء الاختبار رفضاً قاطعاً بنسبة 12% دون ذكر الأسباب. وتم تحديد متغير الاستماع إلى الراديو كعامل مؤثر بشكل كبير في تحديد اتجاهات

[1] A.K.M.Idris,E.Elsaman and other, Sociodemographic Predictors of acceptance of voluntary HIV testing among pregnant women in a large maternity hospital, Omdurman.Sudan.2011

النساء الحوامل في السودان لإجراء اختبار نقص المناعة البشري لكونه أكثر انتشاراً من جهاز التلفاز.

وفي النتائج تبيّن أنّ الخصائص الاجتماعية الديموغرافية للمرأة الحامل كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باستعدادهن لقبول إجراء اختبار نقص المناعة البشرية الذي تقدمه خدمات ANC. كما أنّ للتثقيف في المدرسة حول فيروس نقص المناعة البشرية والوقاية من انتقال الفيروس من الأم الحامل إلى الطفل دوراً أساسياً في التأثير على القبول اللاحق وإزالة وصمة العار، ومن النتائج أيضاً، التركيز على دور وسائل الإعلام، وخاصة الراديو، بحيث تشكل وسيلة غير مكلفة للوصول إلى الأزواج والزوجات.

التعقيب على الدراسات السابقة:

تشترك الدراسات السابقة ذات الصلة بموضوع بحثنا هذا، باهتمامها بمرض الإيدز وأثره في الفرد والمجتمع وتناقش وصمة العار المرتبطة بهذا المرض بشكل جليّ، ويبرز الاختلاف بين الدراسات الثلاث من حيث الجهة القائمة بالبحث، وأهداف كل جهة، كما في الإجراءات المنهجية وحجم العينة أو مجتمع الدراسة بشكلٍ أدقّ.

مما تقدم، وخلال عرض الدراسات والبحوث السابقة ذات الصلة، يتبين لنا فقر البحوث الاجتماعية والسكانية بالموضوعات المتعلقة بمرض نقص المناعة البشرية/الإيدز على مستوى القطر، حيث اقتصرت الدراسات المحلية على مجموعة من الإحصائيات يتم التعرض إليها بشكل بسيط، من خلال المسوح المتعددة الأغراض، التي تقوم بإعدادها الجهات العاملة في مجال الإحصاء بالاشتراك مع المنظمات الدولية الداعمة وهي مسوح قد تُعاب في تقصيرها في عدّة جوانب نذكر منها: أنّها بعيدة كل البعد عن توضيح واقع الحالات المتعايشة مع المرض ضمن المجتمع السوري بشكل واضح وصريح، ولا تقدم شرحاً عن كيفية تأمين العلاج لهم، كما أنها لا توضح حجم الوفيات ضمن هذه الفئة من المرضى، وغيرها من الجوانب التي قد تغيب عن محتوى هذه المسوح بشكل لافت.

ناهيك أنّ المتابعة الدورية لموضوع الإيدز قد تغيب عن العموم وحتى المهتمين بمواكبة تطوراته ومستجدات الأرقام فيه بسبب الانقطاع وعدم انتظام العمل في إجراء مسوح بشكل

مستمر لسبب أو لآخر، وقد يُعزى هذا التقصير مؤخراً لما يتعرّض له قطرنا العربيّ السوريّ على امتداد عشرة أعوام مضت.

وعلى ما تقدّم نذكر أنّ الدراسة الحالية تختلف عن سابقاتها في كونها تعتمد المنهج الوصفي التحليليّ، بالإضافة لإجراء المقابلات مع مسؤولي البرنامج الوطني لمكافحة الإيدز بشكل مباشر، كما أنّ الدراسات في هذا المجال، إن وجدت، فهي نتاج عمل جماعي لمنظمات دولية، بعيدة عن أي إسهام فردي لعرض تطورات وخصائص الحالات المصابة بهذا الفيروس وأثره في الفرد والمجتمع. كما أنّ هذه الدراسة تتصف بالحداثة من الناحيتين؛ الزمنية والموضوعية عن سابقاتها خارج القطر.

يمكن القول: إنّ البحوث العلمية المتعلقة بموضوع فيروس الإيدز وواقعه في سورية، شبه معدومة في الميادين الصحيّة والاجتماعية على حد سواء، وعليه تحاول هذه الدراسة عرض واقع فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز خلال السنوات التي تتضمن فترة الحرب على سورية وإيضاح أثرها فيما يتعلق بهذا المرض الفتاك.

أولاً- فيروس نقص المناعة البشري/ الإيدز ونشأته الجدليّة:

الإيدز، هذا المرض القاتل الذي لم يسبق له نظير من حيث نشأته وطرق انتشاره والعدوى به وحتى في طرق علاجه والشفاء منه؛ تصدّر اهتمام معظم الدول حول العالم خلال القرن المنصرم.

وقد اقترنت نشأته بحالة من تضارب وجهات النظر حول كيفية ظهور هذا المرض بشكل مفاجئ، فالبعض اعتقد بأنّه« انتقل من القردة إلى الإنسان بطريقة ما مثل العضّ أو الذبح أو عملية الصيد نفسها وما يمكن أن ينجم عنها من جراح واختلاط لدم الإنسان بدم قرد ملطخ بالدماء. وتشير الدراسات إلى أنّ المرض انتشر في بداية الأمر في أفريقيا الغربية، فقد تم رصد أول حالة إصابة بفيروسHIV في العام 1959 لبحّار انكليزي تمّت إصابته بالفيروس في جمهورية الكونغو، وفي عام 1969 قضى رجل أمريكيّ نحبه وكانت تقارير فحص الدم تشير إلى إصابته بهذا الفيروس».(المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة

العالمية، من الرابط:https://www.marefa.org/p.13) ومع ذلك لم تجذب هذه الحالات انتباه المجتمع الطبيّ للاعتراف به كمرض فيروسي بين الأوساط الطبية إلاّ في عام 1981 تحت مسمى" السيدا". ومنذ ذلك الحين بقي العمل مستمراً من قبل العلماء والأخصائيين بأمراض الدم في المختبرات الطبية لجمع الحقائق المؤكدة وإجراء الاختبارات «قبل الكشف عنه بين الأوساط عامّة لأول مرة عندما نشرت مجلة جونز هوبكنز الطبية خلاصة ما توصلت له البحوث والحقائق العلمية عن هذا المرض في ديسمبر عام 1985 تحت مسمى الإيدز».(مرجع سبق ذكره، المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية، p.13.)

كانت تلك هي بداية رحلة «انتشار هذا الفيروس إلى جميع أنحاء العالم بحلول عام 1987».(Divisions of HIV/AIDS Prevention"8. 2003) وساعدت حالة الانفتاح على الثقافات والشعوب المجاورة وطبيعة العلاقات في المجتمعات الغربية التي تعتبر العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج جزءاً لا يتجزأ من حرية الفرد، كما أنّ اعترافها ببعض الحريات والتسامح معها" كزواج المثليين" مثلاً، شكل خطراً جديداً مضافاً لمجموعة السلوكيات التي تتسبب بانتقال عدوى الأمراض التناسلية الكثيرة والتي قد تؤدي في نهاية المطاف للإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز، و«هناك اتفاق أنّ أبرز أسباب انتشاره هو العلاقات الجنسية على اختلاف أنواعها والتي ترتبط بالشذوذ بشكل أساسيّ، حيث تم اكتشاف حالات نادرة من فشل الجهاز المناعي بين جماعات المثليين ومتعاطي المواد المخدرة باستخدام الحقن المشتركة بين أكثر من فرد في الولايات المتحدة الأمريكية، ما استدعى وبشكل طارئ إرسال تقرير إلى مركز السيطرة على الأمراض في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تضمن هذا التقرير توصيفاً لإصابة خمسة أشخاص بحالة نادرة من الالتهاب الرؤي الحوصلي الكاريني».(Ibid.2003.) ومن الطبيعي أنّ هذا الانفتاح الثقافي والجغرافي العابر للقارات جعل لهذا الفيروس موطئاً جديداً وهو الوطن العربي، فالعمالة الأجنبية والهجرة وغيرها من الأسباب ساعدت في أن تكون المنطقة العربية مستضيفاً جديداً يضاف إلى قائمة الدول التي ينتشر فيها هذا المرض. و«يمكن القول إنّ المنطقة العربية هي ثاني منطقة بعد أوروبا الشرقية من حيث انتشار مرض نقص المناعة البشرية/ الإيدز حسب تقديرات عام ».(تقارير الأمم المتحدة، 2020. من الرابط:https://news.un.org/ar/tags/lydz) هذا

ويُقدّر إجمالي عدد المتعايشين مع فيروس الإيدز حول العالم بـ35 مليوناً ومنهم 280 ألف شخص في شرق المتوسط مع نهاية 2001 وبلغت الإصابات في العام 2013 وحده 37 ألف حالة جديدة، في حين بلغ عدد المصابين حتى نهاية عام 2014، 36.9 مليون إصابة.(منظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز،2014، الموقع الرسمي) وهذه الأرقام تنبأ أنّ الوضع الصحي المتعلق بهذا الفيروس مازال يهدد حياة الكثيرين من سكان العالم النامي وإفريقيا السوداء، إلى جانب دول أخرى.

ثانياً– التوعية بمرض الإيدز(اليوم العالمي للإيدز وأهدافه):

جرت العادة أن «يُقام اليوم العالميّ للإيدز في الأول من ديسمبر من كل عام، بهدف رفع مستوى الوعي حول فيروس نقص المناعة البشرية».(منظمة الصحة العالمية، اليوم العالمي للإيدز،2020. من الرابط:https://www.who. 2020) وقد أحرز العالم تقدماً كبيراً في هذا المجال منذ أواخر التسعينات، ولكن فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز مازال يعتبر مشكلة رئيسية من مشاكل الصحة العامة على الصعيد العالمي. وقد باتت هذه المشكلة الصحيّة تواجه، شأنها شأن الكثير من المشكلات الصحية الرئيسية الأخرى، تحديات إضافية مع انتشار كوفيد19.

تعد المناطق التي تعاني الحروب والاضطرابات على أي صعيد كان، من أكثر المناطق عرضة لانتشار الأمراض والأوبئة المعروفة سابقاً كما المستجدة، والأمر المخيف حقاً أنّ الكثير من بلدان عالمنا اليوم يعاني ما يعانيه من ظروف الحروب والفقر والجوع والكوارث، لذلك تتضاعف الأخطار الصحية الوبائية مالم تجد صداً وقائياً وعلاجياً يرفع سوية الصحة لدى الجميع عموماً، وفي أوساط الفئات الأكثر ضعفاً وهشاشة صحيّة ومناعية كمصابي مرض الإيدز وغيرهم من المرضى خصوصاً. « فقد اضطربت خدمات الوقاية والفحص والعلاج المتعلقة بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز، لاسيما في البلدان التي تعاني من هشاشة نظمها الصحية، وبات انهيار الخدمات الأساسية واضحاً».(صندوق الأمم المتحدة للسكان،2002، نيويورك) ولذلك كان التذكير بهذا المرض يحدث بشكل سنويّ في اليوم العالمي المخصص له، وذلك لعدة أهداف وغايات

يمكن حصرها تحت مسمى (أهداف اليوم العالمي للإيدز) وهي:(مرجع سبق ذكره، منظمة الصحة العالمية،2020.)

1. التركيز على أهمية التوسع، وزيادة التغطية بالخدمات الوقائية والعلاجية لعدوى الإيدز محلياً وعالمياً.

2. رصد انتشار الإيدز والعدوى الفيروسية على الصعيد العالمي، ورصد مدى توافر خدمات العلاج والوقاية ذات الصلة.

3 . وضع السياسات، وتوفير الإرشادات القياسية والتقنية، لمساعدة البلدان على تعزيز التدخلات في القطاع الصحي، بهدف مكافحة الإيدز، والعدوى بفيروسه.

4. تقديم الدعم اللازم للبلدان المنخفضة الدخل.

5. تأمين الأدوية، ومستلزمات التشخيص والوسائل الأخرى اللازمة لمكافحة فيروس الإيدز وضمان إمدادات كافية منها.

6. دعوة كل الجهات المعنية على الصعيد العالمي إلى مزيد من الاهتمام بوباء الإيدز، والعدوى بفيروسه، وإبداء مزيد من الالتزام بمكافحته.

حيث نجد أنّ هذه الأهداف واضحة وشاملة وعالمية، وهي تناشد الاهتمام العالمي بشكل يراعي متطلبات الدول الأكثر هشاشة على وجه الخصوص، كما تركز على تقديم المساعدات والتغطية بشكل يلغي حالات عدم المساواة بكافة أشكالها.

ثالثاً– الإيدز في سورية:

لقد تّم تشخيص حالات لحاملي مرض نقص المناعة البشرية/ الإيدز في سورية في العقدين الأخيرين من القرن الماضي – وبقيت هذه الحالات تحت المراقبة الصحية لمتابعتها وتأمين العلاج اللازم لها، وعملت الدولة بشكل منهجيّ وفق ما اتبعته منظمة الصحة العالمية من إجراءات في التعامل مع المرض والمتعايشين معه، فتمّ تأسيس مركز مكافحة الإيدز والأمراض

المنقولة جنسياً في الجمهورية العربية السورية عام 1986، بالتزامن مع الاعتراف بهذا الوباء الجديد عالمياً، وهو مركز تابع لمديرية الأمراض السارية والمزمنة بوزارة الصحة.

وفي عام 1987، «جرى تشكيل اللجنة الوطنية لمكافحة الإيدز، تضمنّت في عضويتها جميع وزارات الدولة المعنية والمنظمات غير الحكومية، ويرأس هذه اللجنة وزير الصحة، وتجتمع بمعدّل مرتين في العام الواحد لمناقشة الخطط والاستراتيجيات والسياسات المتعلقة بمرض الإيدز». (البرنامج الوطني لمكافحة الإيدز والأمراض المنقولة جنسياً في الجمهورية العربية السورية، د.ت) وقد كشفت وزارة الصحة السورية في وقت لاحق عن عدد المرضى المتعايشين بعدوى الإيدز «الذي بلغ 512 مريضاً من "السوريين" منذ عام 1987م حتى عام 2015 منهم 145مريضاً يتناولون العلاج بمضادات الفيروسات القهقرية. فيما بلغ العدد الإجمالي لإصابات السوريين وغير السوريين المقيمين في الجمهورية العربية السورية خلال الأعوام الممتدة بين عامي(1987 – 2015) 840 إصابة».(منظمة الصحة العالمية/ البرنامج الوطني لمكافحة فيروس نقص المناعة البشرية- الايدز،2016.)

خصّصت سورية اليوم الأول من شهر كانون الأول/ديسمبر كجزء من اليوم العالمي للتذكير بخطورة هذا المرض وتعريف الأجيال الناشئة البالغة حديثاً بماهية المرض، ونشر مستجدات الأرقام التي وصل إليها من حيث أعداد المتعايشين والمتوفين بسببه، إلى جانب عرض أحدث ما توصل إليه العلم في مجال الدواء والعلاج.

يُذكر أنَ الممثلة المقيمة لمنظمة الصحة العالمية "الزابيث هوف" كانت قد طرحت في اليوم العالميّ للإيدز في سورية عام 2018: «أنّ التجربة السورية في تدبير الأمراض السارية قبل الأزمة كانت من التجارب الرائدة على المستوى الإقليمي، مبينة أنّ احتمال انتشار الأمراض المعدية يزيد في الظروف الطارئة ما يتطلب إجراءات احتياطية صارمة».(الوكالة العربية السورية للأنباء SANA.2018. مقال عبر الرابط:http://www.sana.sy/) فيما كان «الشعار لعام 2019 مرتبطاً بظروف ذلك العام وخصوصيته، "تحت عنوان احتياجاتي الصحية تحت سقف واحد، بدمج الخدمات الصحية لفيروس نقص المناعة البشرية"، حيث تم تسليط الضوء على الالتزامات العالمية من قبل الأطراف المعنية على الصعيدين الدوليّ والمحليّ الممثلين بمنظمة الصحة العالمية ووزارة الصحة السورية لتزويد الأشخاص المتعايشين مع فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز بالعلاج المنقذ للحياة الذي يضمن بقاءهم على قيد الحياة بطريقة تحترم كرامتهم وحقوقهم بقدر من المساواة مع أي شخص غير مصاب بهذا الفيروس».(منظمة الصحة العالميةWHO/ المكتب

الإقليمي لشرق المتوسط/ الجمهورية العربية السورية ،2019) وعلى ما تقدّم يمكن القول بأنّ مواكبة هذا الوباء عالمياً تبقى رهناً بالظروف التي يمرّ بها كل بلد على حدةٍ، فنجد أنّ الشعارات تتغير لتناسب الظروف، أمّا الأهداف فتبقى ثابتة فيما يتعلق بالتثقيف ولأقصى حدّ ممكن، ونشر الوعي بخطورة هذا الوباء، مع مراعاة خصوصية كل بلد، وبالتالي الحدّ من انتشاره في هذا المجتمع أو ذاك على أوسع نطاق محلياً فدولياً.

رابعاً– الإيدز والصحة الجنسية والإنجابية:

في معرض الحديث عن فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز وأثره في المجتمع ككل، لا في الفرد الحامل للفيروس فحسب، كان لابدّ لنا من التطرق لعلاقة هذا الفيروس بالصحة الجنسية التي ترتبط بشكل مباشر بالصحة الإنجابية. فكون الاتصال الجنسي غير المأمون هو أبرز أسباب انتقال العدوى بهذا الفيروس يجعل معظم الدراسات العالمية تتجه إلى نشر ثقافة الصحة الإنجابية وتركز في توجهاتها على فئة الشباب ومن هم في طور دخول مرحلة الحياة الإنجابية (سن البلوغ) من الإناث والذكور على حدّ سواء، «حيث يعدّ شيوع بدء ممارسة الجنس قبل سن 18 مؤشراً ذا صلة أيضاً بالصحة الإنجابية، لأنّ عدم النضج النفسي والعاطفي غالباً ما يرتبط بالسلوك المنطوي على مخاطر».(صندوق الأمم المتحدة للسكان،2002، نيويورك،P.12.) وقد بيّنت الدراسات أنّ معظم الأمراض المنقولة جنسياً تتم في مراحل البلوغ الأولى "المراهقة" وهنا تكمن الخطورة؛ «فإنّ النقص في المعلومات والخدمات الصحية الأساسية تسمح بانتشار الأمراض المعدية التي تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي، وخاصة فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز، مما يشكل تهديدات رئيسية للمراهقين».(المرجع السابق نفسه،2002. p.3.)

فلا يقتصر خطر الاتصال الجنسي بشكل خاطئ وغير مشروع في معظم الأوقات على نقل العدوى بأي مرض خطير كفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز فقط، ففي كثير من الأحوال قد يتعدى نطاق الضرر والإصابة بين شخصين ليتسبب بحدوث حمل غير مرغوب به وبالتالي إمّا اللجوء للإجهاض في ظروف غير صحية قد تعرض الأم الحامل للوفاة أو لإنجاب طفل مصاب بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز ما يتسبب بمعاناته هو الآخر وإجباره على التعايش مع هذا المرض ووصمة العار المرتبطة به طوال فترة حياته. هذا وقد كرّست منظمة الصحة العالمية جهداً إضافياً لفئة النساء المصابات بمتلازمة نقص المناعة البشرية/ الإيدز لتفادي نقل الإصابة بهذا الفيروس من الأم المصابة إلى الجنين قدر المستطاع من خلال الأدوية القهقرية.

خامساً– الطرق الشائعة لانتقال الإيدز:

يعتبر الإيدز من أخطر الفيروسات التي تدمر الجهاز المناعي لجسم الإنسان وتهدّد بقاءه، وعليه توجهت جهود ضخمة لدراسة خصائصه وطريقة اختراقه للجهاز المناعيّ، لن نتطرق لها بشكل تفصيلي كونها تأخذ تفصيلاً دقيقاً تحت مسميات طبية دقيقة، بل نتجه لعرض الطرق التي ينتقل من خلالها هذا الفيروس؛ كونها نقطة البداية لحياة هذا الفيروس في جسم الإنسان الذي انتقلت إليه العدوى، «حيث تعتبر الطريقة الرئيسية السائدة لانتقال العدوى في جميع أنحاء العالم عبر الاتصال الجنسي، ولاسيما ممارسته دون وسيلة حماية ومع ذلك، فإنّ هناك وسائط انتقال أخرى أقل وضوحاً،...، مثل التعرّض لإدمان حقن مخدرات ملوثة، التي تعدّ بدورها الوسيط الرئيسي لانتقال العدوى في بلدان محددة، كأفغانستان وإيران، وتونس وليبيا».(منظمة الصحة العالمية WHO/ المكتب الإقليمي لشرق المتوسط،2017، p.13) وتسمح لنا بعض الحقائق الواضحة من القول إنّ العدوى بفيروس نقص المناعة البشرية تنتقل عبر مجموعات رئيسية إلى عموم الأشخاص أكثر من الحالات الفردية بشكل عرضيّ، «كالعاملات بالجنس، ومتعاطي المخدرات بالحقن، والمثليين، وهي فئات سكانية تمثل جسوراً لنقل العدوى».(المرجع السابق نفسه،2017، p.15.) كما «ينتقل الفيروس من الأم الحامل المصابة بعدوى فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز إلى جنينها عبر السائل الأمينوسي الذي يحيط بالجنين داخل الرحم».(نكورت، د. ت، p.11.) وينتقل الفيروس أيضاً عن طريق نقل الدم الملوث إلى دم الشخص المتلقي في الحالات التي لا يتم فيها إجراء فحص الكشف عن فيروس الإيدز. وسنكتفي بهذا العرض المقتضب هنا، ليتم إيضاح طرق انتقال العدوى بمرض الإيدز بشكل مفصّل في الجانب التحليلي للبيانات على مستوى المحافظات السورية ككل.

سادساً- الإيدز وفيروس كورونا Covid-19 المستجد:

عملت منظمة الصحة العالمية بسرعة متناهية في توجيه الانتباه لهذه الفئة من المرضى المتعايشين مع عدوى الإيدز والتي تعاني هشاشة مضاعفة وصرّحت «أنّ بلوغ الغايات 90/90/ 90العالمية الجديدة المقترحة*، تستوجب علينا مضاعفة جهودنا المبذولة لتجنب السيناريو الأسوأ المتمثل في حدوث نصف مليون وفاة إضافية في المناطق الأكثر هشاشة، وازدياد حالات العدوى الجديدة بالفيروس جراء تعطل الخدمات أثناء جائحة كوفيد-19، وتباطؤ استجابة الصحة العامة للفيروس».(منظمة الصحة العالمية، 30 نوفمبر2020. من الرابط،https://www.who.int/ar hiv-aids.) فالإصابة بفيروس الإيدز بطبيعتها تحارب الجهاز المناعي لجسم المستضيف، وعليه فالمتعايشون مع المرض هم أكثر عرضة لأي مرض وهم أكثر عرضة من غيرهم للإصابة ببعض أنواع السرطان، وذلك لضعف جهازهم المناعيّ وخاصة في حال عدم تلقي العلاج بالعقاقير القهقرية التي توصف وفقاً لمستوى الإصابة ونسبة تواجد الفيروس في الدم، فلنا أن نتصور ما سيكون عليه الحال بوجود فيروس وبائيّ ينتشر في العالم أجمع بشكل مضطرد ويحصد الآلاف من الأرواح يومياً، وهذه النقطة الرئيسية التي توجهت منظمة الصحة العالمية لتفادي أخطارها مؤخراً مع جائحة كورونا عالمياً، وأوعزت حالة عدم المساواة في توزيع العلاج لمرضى الإيدز المنتشرة في كثير من المناطق الجنوبية من العالم (الدول الإفريقية على وجه الخصوص) وهي المناطق الأكثر فقراً وبؤساً، حالةً من القلق الكبير، حيث تسجل الوفيات في هذه المناطق بسبب أمراض سوء التغذية والسل والإيدز نسباً مرتفعةً أكثر من أي مكان آخر في العالم، أضف إلى ذلك المناطق التي تكثر فيها حالة الحروب وعدم الاستقرار- وهي حالة تعيشها الكثير من دول العالم والمنطقة- ما يتسبب بحالة من انقطاع العلاجات وزيادة في عدد الإصابات والعدوى وبالتالي زيادة في عدد الوفيات.

* اقترح برنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشري/ الإيدز مؤخرًا أهداف العلاج السريعة الطموحة (90-90-90)، مع حلول عام 2020، يجب أن يعرف 90٪ من المصابين بفيروس نقص المناعة البشري في جميع أنحاء العالم تشخيصهم، وينبغي أن يكون 90٪ من هؤلاء الأشخاص يتلقون العلاج المضاد للفيروسات القهقرية و 90٪ من هؤلاء الأفراد (أي 73٪ من جميع المصابين بفيروس نقص المناعة البشرية) يجب قمعهم فيروسيًا، كوسيلة للقضاء على فيروس نقص المناعة البشري باعتباره تهديدًا للصحة العامة بحلول عام 2030.المصدر:

Gupta.A & Shah.M, Epidemiological impact of achieving UNAIDS 90-90-90 targets for HIV care in India: a modelling study, V.6(7),2016.

مـا يمكـن قولـه فـي هـذا الإطـار: هـو أنّ المتعايشـين مـع فيـروس الإيـدز قـد تكـون منـاعتهم أقـوى مـن غيـرهم مـن الأشـخاص الأصـحّاء فـي حـال متـابعتهم للعـلاج بالعقـاقير القهقريـة دونمـا انقطـاع، «فقـد أصـبحت عـدوى هـذا الفيـروس حالـة صـحيّة مزمنـة يمكـن تـدبيرها علاجيـاً، ليـتمكّن بـذلك المتعايشـون مـع عـدواه مـن إطالـة أعمـارهم فـي ظـلّ التمتـع بالصـحة»(مرجـع سـبق ذكـره، منظمـة الصـحة العالميـة، 2020)، ويمكـن التعامـل حينهـا مـع جائحـة كورونـا بالأسـاليب الوقائيـة المعتـادة، أمّـا فـي حـال عـدم وجـود تلـك الأسـاليب الوقائيـة فقـد تـؤدي أي عـدوى بسـيطة لمـريض الإيـدز إلـى وفاتـه فـي وقـت أسـرع مـن غيـره، فجهـاز المناعـة لديـه يكـون فـي حالة متدنية وظيفياً وأضعف من الحالات الطبيعية للبقاء على قيد الحياة.

أمّا على الجانب السوريّ، وضمن خطة الاستجابة الوطنية لمكافحة فيروس كورونا المستجدCovid-19، وفي إطار متابعة الإجراءات الاحترازية للوقاية من فيروس كورونا للمرضى المتعايشين بعدوى فيروس الإيدز/HIV قامت وزارة الصحة بإصدار قرار تنفيذي رقم 6: 14/1105 بتاريخ 16-4-2020 تمّ تعميمه على كافة المحافظات السورية للعمل به وتنفيذه، تضمّن الآتي:(وزارة الصحة في الجمهورية العربية السورية، قرار تنفيذي، 2020).

- تفعيل فرق التقصّي الوبائيّ في مجال متابعة الوضع الصحيّ للمرضى المتعايشين بعدوى فيروس الإيدز.
- تخصيص غرفة للعزل الصحيّ خاصة بالمرضى المتعايشين بعدوى فيروس الإيدز عدد/2/غرفة، في مراكز الحجر المعتمدة.
- تخصيص غرفة للحجر الصحيّ خاصة بالمرضى المتعايشين بعدوى فيروس الإيدز عدد/2/غرفة، في حال تمّ تأكيد إصابتهم بعدوى فيروس كورونا المستجد.
- في حال ورود أي حالة مشتبه بها يتم إحالتها إلى مركز الحجر للتعامل معها وفق بروتوكول الحالات المشتبهة بالكورونا.

- موافاة البرنامج الوطني لمكافحة الإيدز بتقرير أسبوعيّ يتضمن الوضع الصحيّ للمرضى المتعايشين بعدوى فيروس الإيدز.

إنّ ما يشكله وباء كورونا المستجد من ضغوط على الصحة عامةً، وعلى هذه الفئة من المصابين بفيروس الإيدز بشكل خاص، يجعل هذه الأخيرة محطّ اهتمام ورعاية مضاعفة، تتولّى وزارة الصحة في قطرنا زمام متابعتها عبر مديرياتها ومراكزها الموزعة في كافة المحافظات ورعايتها بشكل مباشر.

سابعاً– النتائج والمناقشة:

أ– المقابلات:

قبل الخوض في تحليل الأرقام المتعلقة بالبحث، تجدر الإشارة أنّه وبعد إتمام الإجراءات الروتينية لتسهيل مهمة الباحثة في جمع البيانات من وازرة الصحة ومديرياتها ودوائر الصحة المعنية التابعة لها في محافظتي دمشق واللاذقية، أجريت مقابلات شخصية مع مسؤولي برامج الأمراض السارية والمعدية والمكلفين بمتابعة أحوال المرضى المتعايشين مع فيروس نقص المناعة البشريةHIV في محافظتي دمشق واللاذقية، للوقوف على بعض الحقائق التي تحقق نتائج أدق في توصيف الواقع في هذا المجال.

ومن منطلق توصيف واقع هذا المرض في محافظة اللاذقية بشكل موسّع، كانت البداية من مديرية الصحة في محافظة اللاذقية والمسؤول عن البرنامج فيها الدكتور مصطفى صالح، وفي سؤاله عن أعداد المرضى المتعايشين مع مرض الإيدز وعن طرق اكتشاف المرض والاختبارات التي يعتمدها البرنامج على مستوى محافظة اللاذقية في هذا الإطار، وعن أعمار المصابين المتعايشين مع المرض وجنسهم ومستواهم التعليمي، عملهم/ وظيفتهم، وطرق انتقال العدوى إليهم وعدّة نقاط أخرى (نذكرها في سياق العرض)، أجاب الطبيب متعاوناً وحريصاً على تقديم صورة مفصلة لموضوع البحث: بأنّ التعامل مع المرضى المتعايشين مع فيروس HIV على مستوى الجمهورية العربية السورية هو تعامل سريّ للغاية، حيث يلتزم المسؤول عن البرنامج بخصوصية وسرية البيانات الشخصية لكل

حالة في كل محافظة مهما كانت الظروف، وعليه يتم إعطاء رمز/ كود، لكل حالة بعيداً عن أسمائهم الشخصية منذ بداية اكتشاف الإصابة، وتجري متابعة كل حالة بشكل شبه يومي عبر الاتصالات الهاتفية، كما تتم متابعة تحركات المصابين المتعايشين واحتياجاتهم لتلقي الدعم النفسيّ والاجتماعيّ.

وأشار إلى أنّ التعامل مع المرضى يقوم على أساس اعتبارهم "أصدقاء" قبل كل اعتبار؛ نتبادل أطراف الحديث عن تفاصيل اليوم الخاصة بهم ونجعلهم يشعرون بالراحة والأمان وبمسؤولية كبيرة تجاه الأشخاص غير المصابين في مجتمعهم وبيئتهم المحيطة. فعلى سبيل المثال: قد تتصل الحالة رقم (..؟..) على هاتفي الخاص بالتواصل مع المصابين وتخبرني بأنّها تعاني من ألم شديد في الأسنان وهي بحاجة للذهاب إلى طبيب الأسنان بأسرع وقت ممكن، وهنا يبدأ دوري بالتواصل مع أطباء "محددين" لأخذ موعد لها، ففي حالات كثيرة قد يرفض بعض أطباء الأسنان التعامل مع المصابين بهذا المرض، ونحن بذلك نجنّب المصابين الخذلان والإزعاج ونعمل على عدم ذكر الأسماء بالاتفاق مع الطبيب المعالج، لاتخاذ التدابير الاحترازية الإضافية من ناحية المعدات والتعقيم، إذ من غير المسموح للمتعايشين مع الفيروس الاستهتار بصحة الآخرين في مجتمعهم والتحرك عشوائياً مع إمكانية تسببهم بقصد أو دون قصد بحالات عدوى لأشخاص جدد، وهذه نقطة متفق عليها بين المتعايشين ومسؤولي الدعم والرعاية في البرنامج.

وبالسؤال عن الفئات العمرية للمتعايشين بعدوى الإيدز وأعدادهم في المحافظة؛ يقول الطبيب: يمكن القول إنّ أعمار المتعايشين مع المرض تتراوح بين (25–65) عاماً، أما عن عدد الحالات فقد وصل إلى (20) حالة عام 2020، حيث كانوا العام الفائت عام 2019 (19) حالة، أي أن الزيادة هي حالة واحدة جديدة لشخص قادم من بلد أجنبي كان قد أصيب بالمرض هناك وتمّ إجلاؤه إلى وطنه، وهذا إجراء تقوم به بلدنا أيضاً؛ حيث نقوم بإجلاء أي أجنبي مصاب إلى بلده عند التأكد من إصابته بعدى فيروس نقص المناعة المكتسبةHIV. أما عن الأعداد الإجمالية خلال السنوات السابقة يقول الدكتور

صالح: يقتصر توفر هذه الأرقام بشكلها التجميعي عن كافة المحافظات السورية على المركز الرئيسي لبرنامج مكافحة الإيدز/دمشق.

وبالانتقال للسؤال عن المستوى العلمي لحالات المصابين والمتعايشين مع المرض، يقول دكتور صالح:

فعلياً؛ هناك حالات عدّة للإصابة على مستوى علمي وأكاديمي عالي، من بينها دكتور شاب وهو الآن بصدد الزواج من أنثى غير مصابة، هنا كان سؤال الباحثة: هل يسمح للمتعايشين مع المرض بالزواج وإنجاب الأبناء وتكوين أسرة من أشخاص أصحاء؟ فكان الجواب: بنعم. لكن كيف؟ نعم يمكن أن يحصل كل ذلك، حيث هناك شروط للزواج وشروط للإنجاب، فالزواج يكون بعلم الطرف الآخر ومعرفته بإصابة الشريك قبل الزواج، وتقبّله للأمر وتواصله وحضوره إلينا شخصياً للقيام بإعطائه كافة التفاصيل عن المرض وعن طرق التعامل معه مستقبلاً، أما الإنجاب فيكون عن طريق (زراعة النطاف) وعليه يتم إنجاب أطفال طبيعيين أصحاء يتمتعون بصحة جيدة – وهذه الفكرة أكدها الطبيب عمر أبو النعاج في مركز مكافحة الإيدز/ دمشق– حين أجاب عن هذا السؤال: بأنّ إنجاب أطفال أصحاء من آباء مصابين قد حدث فعلاً، حيث كان لزوجين في محافظة طرطوس تجربة إنجاب توأم (ذكر وأنثى) أصحاء، كانت تعطى أدوية للأم خلال فترة حملها لمنع انتقال العدوى لأجنتها وتابع الأطفال بعد الولادة نوعاً من الأدوية المناعية تزيد مناعتهم لمدة ثلاث سنوات على الأقل، وهم الآن أطفال أصحاء في مدارسهم ويعيشون حياتهم الطبيعية ضمن أسرتهم ومجتمعهم، وأضاف الطبيب مستدركاً: قد يصحّ القول إنّ حالتهم الصحية ومناعتهم جيدة أكثر من غيرهم من الأطفال.

أما عن طرق اكتشاف الحالات المصابة يقول د. صالح إنّ معظم الحالات المكتشفة كانت عن طريق الاختبارات في بنك الدم المركزيّ، واختبارات ما قبل الزواج، واختبارات التهاب الكبد الوبائي، واختبار الإليزا؛ الذي يعتبر أقرب ما يمكن لاختبار الكشف عن الإيدز، وفي بادئ الأمر تكون الحالات مشتبهاً بها عن طريق عدد الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، أمّا الاختبار الخاصّ بمرض الإيدز فهو محصور في المخبر المرجعيّ

في العاصمة دمشق، وهو مجانيّ للحالات المشتبه بإصابتها، كما يتم تحويل العيّنات من اللاذقية إلى دمشق ليتم التأكد من الحالة، وهكذا يتم التعامل مع الحالات المصابة أو المشتبه بإصابتها في كافة محافظات القطر.

وبالسؤال عن العلاج للحالات المتعايشة يجيب د. أبو النعاج، أنّ العلاج الدّائم يُقدم للمتعايشين بشكل مجانيّ وهو مؤمّن من قِبل منظمة الصحة العالمية كمنحة للجمهورية العربية السورية منذ عام 2014 وتُقدر تكلفة العلاج للشخص الواحد بـ 2.500.000 ليرة سورية شهرياً، بمتوسط سعر الصرف في سورية للعملة العالمية للعام 2021، والجدير بالذكر أنّ هذه المنحة تنتهي هذا العام، مطلع 2022.

من خلال المقابلات التي تم إجراؤها مع كل من الدكتور عمر أبو النعاج/ دمشق، والدكتور مصطفى صالح/اللاذقية، يظهر جلياً أنّ واقع الحالات المتعايشة مع فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز، تلقى مزيداً من الاهتمام والمتابعة على المستويين الجسديّ والنفسيّ، كما أنّ الواقع هنا يُظهِر أنّ انتقال العدوى بهذا المرض لا يرتبط بالمستوى التعليميّ المتدنيّ؛ حيث سُجلت بعض الإصابات بين الحاصلين على مستوى تعليم عالي، مهندسين وخريجين وطلبة، كما يتّضح أنّ حالة الحرب على سورية لم تمنع تقديم العلاج الشهريّ الدّائم للمتعايشين دونما انقطاع على مستوى محافظتي دمشق واللاذقية.

ب- تحليل وتفسير البيانات:

قامت الباحثة بعملية إعادة جمع البيانات التي توضّح أعداد المتعايشين مع مرض نقص المناعة البشرية/ الإيدز على مستوى الجمهورية العربية السورية للسوريين وغير السوريين من المصدر في وزارة الصحة- مديرية الأمراض السارية والمعدية/برنامج مكافحة الإيدز، وتنسيقها في جدول واحد يسهّل على القارئ متابعة التطورات الحاصلة في الأرقام منذ بدء

عمل برنامج مكافحة الإيدز في سورية، أي على امتداد الفترة (1987– 2020) كما هو موضّح في الجدول رقم(1)*.

وتجدر الإشارة أنّ هذه الأرقام هي أرقامٌ مطلقة، كونها تتأثر بازدياد أعداد السكان في كل سنة بشكل عام، وعلى مستوى القطر بشكل أكثر دقة.

حيث تُظهر بيانات الجدول أنّ الأعوام الأولى لتفعيل عمل البرنامج في سورية لم تكن لتسجل أعداداً تتخطى الـ(25) حالة على امتداد خمسة عشر عاماً ممتدة من 1987حتى عام 2001، وخلال هذه الفترة كانت نسبة الحالات المصابة بين الذكور أعلى منها لدى الإناث، وخاصة الذكور السوريين، وكان السبب الأكبر لانتقال العدوى لدى الحالات هو تعدد العلاقات الجنسية، وربما يعود ذلك لطبيعة التنشئة والبيئة الذكورية التي كانت ولازالت تسود معظم مجتمعاتنا العربية والتي تعطي ضمنياً حرية العلاقات الجنسية للأبناء الذكور وتحرّمها على الإناث بشدّة، فهي غير مقبولة في مجتمعاتنا العربية بأي شكل من الأشكال.

ونلاحظ من ناحية أخرى أنّه وفي غياب الوعي بأهمية استخدام الواقيات الذكرية خلال العلاقات، كوسيلة حماية للذكر كما الأنثى من انتقال العدوى، فكثير من الحالات المصابة من الإناث كانت عن طريق الشريك/ الزوج، وذلك لا ينفي وجود حالات وأسباب أخرى لانتقال العدوى والاصابة، كالأدوات الطبية غير المعقمة بشكل فعّال؛ كأدوات طبيب الأسنان وإبر الوشم التي كانت تستخدم عدة مرات ولأكثر من شخص، كما شفرات الحلاقة وغيرها من الأدوات التي كانت تستخدم باستهتار وعدم وعي من قبل عدة أفراد، بالإضافة إلى تعاطي المخدرات الوريدية بمحاقن مشتركة. هذا وقد بدأت الأرقام تنبئ

*تم إعداد الجدول رقم (1) من قِبل الباحثة بالاستناد إلى مجموعة تقارير صادرة عن وزارة الصحة– مديرية الأمراض السارية والمعدية/ برنامج مكافحة الإيدز في سورية/ دمشق، منها ما كان متوفراً بشكل إلكتروني وآخر بشكل ورقيّ. كما تم الاستعانة بالموقع الرسمي للمكتب المركزي للإحصاء في الجمهورية العربية السورية فيما يتعلق بأعداد السكان خلال السنوات المحددة في البحث.

بحالة من الزيادة في العام 2002 حيث لم يسبق أن وصل عدد الحالات منذ بدء العمل بالبرنامج عام 1987 إلى 30 حالة إصابة، وهنا كانت نقطة التحول في مسار الثبات في الأرقام، وعليه بدأت الأرقام تسجل ارتفاعاً غير مسبوق لتصل إلى 70حالة في الفترة بين عامي 2006و2009، و69 حالة عام 2011، إذاً وحسب الجدول (1) نجد أنّ السنوات العشرة الممتدة من عام 2002 حتى عام 2012 مع (استثناء عام 2003) سجلت فيها زيادة غير مسبوقة في عدد الحالات المسجلة وهي حالات تم توثيقها ومتابعتها خلال فترة سابقة للحرب الإرهابية على سورية، أمّا العام2012، فقد سجل انخفاضاً عن الأعوام السابقة رغم ارتفاعه حيث يمكن إرجاء هذا التراجع إلى حالة عدم الاستقرار الأمني التي بدأت في ربيع عام 2011 حيث بات المتعايشون مع الفيروس يجدون صعوبة في الوصول إلى مراكز الرعاية الخاصة بهم ضمن المناطق التي شهدت نزاعات مسلحة وخروج بعض المديريات والدوائر الصحية المسؤولة عن الكشف عن المرض عن سيطرة الدولة السورية، وهذا ما يؤكده ارتفاع الأرقام اللاحقة منذ عام 2017 حتى عام 2019 حيث شهدت هذه الأعوام تحسناً ملحوظاً على الصعيد الحربيّ باسترجاع السيطرة على بعض المناطق وبشكل متوالٍ، في حين كان عام 2020 يبشّر بانخفاض الحالات عن سابقاتها من الأعوام التي خلت، ويبقى هذا الانخفاض في الحالات المصابة والمتعايشة مع المرض عرضة للانتكاسات مالم تتم متابعة العلاج الطبي الموحّد لمعظم الحالات مع وجود خطر أكبر عليهم بانتشار فايروس كورونا كوفيد19 والذي سنعرض لاحقاً ما تم اتخاذه من إجراءات في هذا المجال.

الجدول رقم(1) يوضّح أعداد المصابين بفيروس الإيدزAIDS/HIV في الجمهورية العربية السورية(بين السوريين وغير السوريين) خلال الأعوام (1987–2020).

مجموع الاصابات خلال العام	غير سوريين Non Syrian PLWHA		سوريين Syrian PLWHA		نسبة الإصابات لكل مليون من السكان	تقديرات تعداد السكان في كل عام	العام Year
	إناث Female	ذكور Male	إناث Female	ذكور Male			
7	1	1	2	3	2.4	10969000	1987
4	0	3	1	0		11338000	1988
16	0	6	0	10		11719000	1989
1	0	1	0	0		12116000	1990
15	1	1	3	10	6.9	12529000	1991
8	3	1	2	2		12958000	1992
23	1	8	1	13		13393000	1993
25	2	10	2	11		13782000	1994
22	1	3	6	12		14186000	1995
19	2	5	0	12	6.2	14689000	1996
13	3	4	0	6		15100000	1997
23	4	5	3	11		15597000	1998
25	5	4	7	9		16110000	1999
16	1	3	2	10		16320000	2000
24	8	2	5	9	8.8	16720000	2001
31	5	7	4	15		17130000	2002
18	6	2	3	12		17550000	2003
35	12	4	5	14		17980000	2004
47	19	6	5	17		18269000	2005
70	28	8	8	26	16	18717000	2006
54	27	8	6	13		19172000	2007
56	26	5	7	18		19644000	2008
70	24	6	9	31		20125000	2009
66	16	7	12	31		20619000	2010
69	9	6	5	49	6.9	21124000	2011
37	2	3	6	26		21639000	2012
11	0	0	0	11		22169000	2013
23	2	0	2	19		22712000	2014
13	0	0	5	7		23268000	2015
22	0	1	4	17	9.9	23839000	2016

2017	24422000		25	10	2	1	38
2018	25021000		42	10	5	2	59
2019	25634000		37	15	3	2	57
2020	17501000		23	5	1	1	30
المجموع	-		-	-	-	-	867

وإذا ما أردنا أن نكون أكثر دقة، ولأنّ الأرقام المطلقة لا تعطينا صورة واضحة عما يشكله عدد الإصابات من انتشار في المجتمعات عامة والمجتمع السوريّ خاصةً؛ توجّب علينا تقديم هذه الحالات وعددها بشكل أوضح عن طريق احتساب نسبة الإصابات خلال الأعوام المذكورة لكل مليون من السكان.

عليه، سجلت الأعوام الأولى لبدء عمل البرنامج في سورية، أي الفترة (1987–1999) أدنى نسبة إصابات 2.4 إصابة بالمليون، حيث تعتبر النسبة الأدنى التي تمّ تسجيلها حتى عام 2020، في المقابل كانت النسبة الأكثر ارتفاعاً حتى العام 2020 قد سُجلّت خلال الأعوام الممتدة بين (2006–2010) بنسبة وصلت لـ 16/ بالمليون، وهذه الفترة هي فعلياً الفترة التي سبقت الحرب الإرهابية على سورية، وتتخللها آثار الأزمة الاقتصادية العالمية التي كانت قد بدأت عام 2008حيث تسببت بركود اقتصاديّ غير مسبوق خلال القرنين الماضيين، وطالت بواقعها جميع بلدان العالم دونما استثناء. ولطالما كانت الأزمات اقتصادية ترتبط بحالة من انتشار الفقر والأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تفرز بدورها بعض السلوكيات غير الأخلاقية وانتشار الجريمة والشذوذ.. إلخ.

الشكل البياني رقم(1) يمثل توزع إصاباتHIV/AIDS السوريين/غير السوريين حسب السنوات من عام1987 حتى نهاية 2020

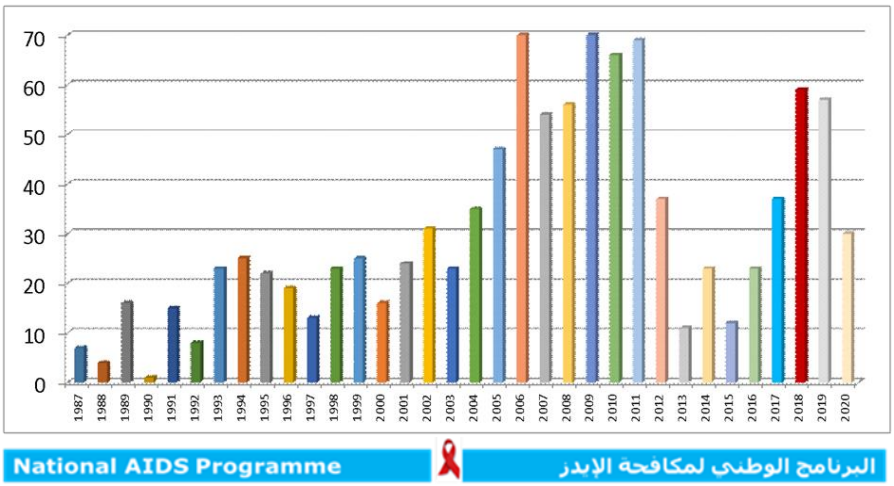

يمكن القول أنّ ما يوضحه الجدول رقم (1) بالنسبة لأعداد الحالات المصابة والمتعايشين مع مرض الإيدز منذ بداية عمل البرنامج في قطرنا، تدعو للطمأنينة وعدم القلق، فنسبة الإصابات ضئيلة إذا ما نسبناها للمجموع العام للسكان على امتداد هذه السنوات، وتكاد لا تذكر إذا ما قارناها بالأعداد المسجلة في دول أخرى.

والجدير بالذكر أنّ حالة الاحتواء لهذا المرض وللمتعايشين معه من قِبل الحكومة السورية عبر مؤسساتها الصحية المعنية بالموضوع، تعزّز حالة عدم القلق التي تترافق مع أي مرض أو وباء فتّاك بهذا الحجم.

يوضّح الشكل البياني رقم (2) توزّع المرضى المتعايشين مع مرض نقص المناعة البشرية والمستمرين في تلقي العلاج في محافظات الجمهورية العربية السورية على امتداد 34 عاماً منذ بدء برنامج مكافحة الإيدز أعماله في سورية، ومن الرسم البياني نجد أنّ معظم الحالات المصابة والمتعايشة مع المرض تتركز في محافظة دمشق حيث بلغ عدد الحالات (148) حالة وعليه فالعاصمة دمشق تحتل المركز الأول من حيث عدد الحالات المتعايشة مع مرض الإيدز الذين يتلقّون العلاج باستمرار حتى عام 2020، ويمكن القول إنّ طبيعة الحياة في دمشق وخصوصيتها في كونها مركزاً يقصده الباحثون عن عمل من كل المناطق والمحافظات السورية، يجعلها الأكثر كثافة سكانياً مقارنةً بغيرها من المحافظات، وذلك لا يقتصر فقط على حجم السكان، بل على عدد الإصابات والعدوى بأي فيروس كما هو الحال مع فيروس كورونا

المستجد، حيث نجد أنّ الحالات المسجلة في دمشق هي الأعلى منذ اكتشاف أولى الحالات في سورية إلى الآن. كما تحتل محافظة حلب المرتبة الثانية بـ (37) حالة وهي كسابقتها دمشق مرتبطة بكونها مدينة جاذبة للعمل وتسجل ارتفاعاً في حجم الكثافة السكانية– قبل الحرب الإرهابية على سورية– فهي ثاني مقصد للعمل بعد العاصمة دمشق.

الشكل البياني رقم(2) يمثل توزع المرضى السوريين المستمرين في العلاج حسب المحافظات(منذ عام**1987 حتى عام 2020**)

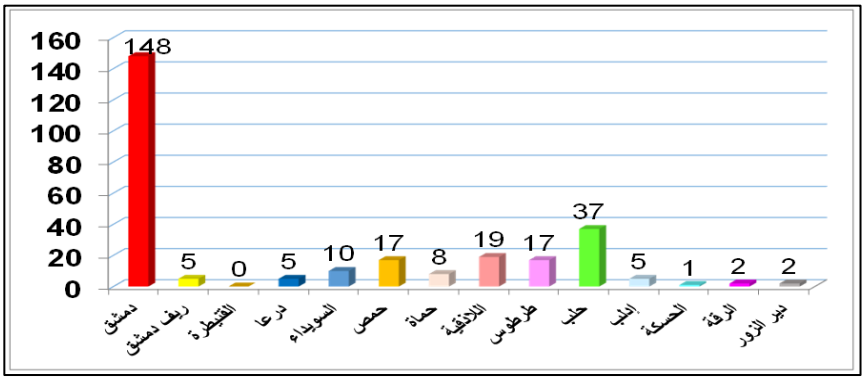

أمّا المرتبة الثالثة من حيث توزع الحالات المتعايشة المستمرة في تلقي العلاج كانت في محافظة اللاذقية (19) حالة حيث سبق وتوسعنا في خصوصية الحالات من خلال اعتماد المقابلة مع المسؤول عن هذه الحالات بشكل مباشر على مستوى محافظة اللاذقية، وتأتي محافظتي طرطوس وحمص في المرتبة الرابعة بعد محافظة اللاذقية بلغ العدد (17) حالة في كل محافظة، وفي المرتبة الخامسة تأتي محافظة السويداء بـ (10) حالات، وتليها محافظة حماه بـ (8) حالات، ثم محافظات ريف دمشق درعا وإدلب بـ (5) حالات في كل محافظة، وبمعدل حالتين اثنتين في كل من محافظتي الرقة ودير الزور، وحالة واحدة فقط في محافظة الحسكة، لتكون بذلك محافظة القنيطرة هي المحافظة الوحيدة التي خلت من وجود متعايشين مع المرض يتلقّون العلاج ويمكن إرجاع خلوّ هذه المحافظة على وجه التحديد في كونها تتشكل من مجتمع ضيّق متجانس في معظمه تحكمه العادات الاجتماعية الدينية بشكل محكم، وعليه حتى مع إمكانية وجود إصابات فليس من المتوقّع أن تستقر الحالات المتعايشة في القنيطرة لما قد يتسبب ذلك من وصمة لعائلة المصاب على وجه التحديد قبل أيّ سبب آخر. مما تقدّم نلاحظ أنّ أكثر الحالات المتعايشة مع المرض والتي لازالت تتلقّى العلاج قد تركّزت في المحافظات الرئيسية دمشق،

حلب، اللاذقية. في حين كانت المحافظات الحدودية البعيدة تسجل أدنى عدد من حيث الحالات المتعايشة بكافة الأحوال سواء ممن يتلقّون العلاج أم لا.

ج- توزّع الحالات المصابة/المتعايشة بفيروس الإيدز حسب الجنس في سورية خلال الأعوام 1987 حتى عام2020 :

أمّا من حيث توزع الحالات بين الذكور والإناث ممن هم مصابون ومتعايشون مع المرض، نقرأ ذلك من خلال الجدول رقم (2) والتمثيل البياني الموضح له رقم (3)، حيث يظهر أنّ الحالات المصابة/المتعايشة مع فيروس الإيدز لدى السوريين في معظمها لدى الذكور بنسبة 79% من الحالات، بينما نجد أنّ الإناث يشكلن نسبة 21%، وهنا يمكن القول بارتباط هذه النسبة بطبيعة الأسباب التي تمّ من خلالها الإصابة بالفيروس أو انتقال العدوى؛ حيث تشكل العلاقات الجنسية غير الآمنة السبب الأهم والأكثر شيوعاً من بين باقي الطرق والمسببات في ذلك، فطبيعة التربية الذكورية السائدة في مجتمعنا السوري كامتداد لباقي المجتمعات العربية التي تخصّ الذكور فقط في حرية إقامة العلاقات الجنسية خارج مؤسسة الزواج وتبرر لهم هذا الفعل من مبدأ فيزيولوجي، حتى مع تعارض هذا النوع من العلاقات مع السائد من التعاليم الدينية الإسلامية وما تحرَمه أخلاقياً.

يوضح الجدول رقم (2) توزّع الإصابات المتعايشة مع فيروس نقص المناعة البشرية بين السوريين حسب الجنس من العام 1987 حتى نهاية العام 2020.

الجدول رقم (2) توزّع إصابات HIV/AIDS بين السوريين حسب الجنس من عام 1987 حتى نهاية عام2020: من إعداد الباحثة بالاستناد إلى بيانات الجدول رقم (1)

سوريين Syrian PLWHA		العام Year
إناث Female	ذكور Male	
2	3	1987
1	0	1988
0	10	1989
0	0	1990
3	10	1991
2	2	1992
1	13	1993

2	11	1994
6	12	1995
0	12	1996
0	6	1997
3	11	1998
7	9	1999
2	10	2000
5	9	2001
4	15	2002
3	12	2003
5	14	2004
5	17	2005
8	26	2006
6	13	2007
7	18	2008
9	31	2009
12	31	2010
5	49	2011
6	26	2012
0	11	2013
2	19	2014
5	7	2015
4	17	2016
10	25	2017
10	42	2018
15	37	2019
5	23	2020

وكما أشرنا سابقاً أنّ الحالات المتعايشة مع الفيروس في معظمها تتركز لدى الذكور وبنسب متفاوتة خلال الأعوام الـ 35 الموضحة في الجدول.

يمكن القول إنّه في بادئ الأمر وحتى العام 2005 كان عدد المصابين من الذكور لا يتعدى الـ 17حالة، وبالمقابل وحتى العام نفسه كانت عدد الحالات بين الإناث لا تتعدّى الـ 7حالات في أكثر الأعداد ارتفاعاً، بينما تسجل الأعوام التالية للعام 2005 تذبذباً في عدد الحالات المتعايشة بين الجنسين، حيث سجل العام 2006 ارتفاعاً غير مسبوق منذ تفعيل عمل البرنامج في عدد

الحالات المصابة والتي تركزت بين الذكور بعدد بلغ 26 حالة قابلها 5حالات من الإناث، وهي طفرة غير مسبوقة تجعلنا عاجزين عن إرجاء حدوثها لأي سبب بعينه، فلم يكن العام 2006ليسجل أيّ خلل أو حدث جديد محلياً أو عالمياً على حدّ سواء.

وقد يرجع الأمر إلى نشاط أكبر في تسجيل الحالات وانشغال رسمي أكبر بها، وبأهمية توثيق أعداد الحالات المصابة.

وبطبيعة الحال لم تكن هذه إلاّ البداية لزيادة أعداد الحالات المصابة في أعوام لاحقة سجلت أعلاها عام 2011 وهو العام الذي بدأت فيه الحرب في قطرنا العربي السوري، وسجلت خلاله 49حالة لدى الذكور يقابلها 5حالات بين الإناث، وهنا يمكن القول بأنّ الأوضاع التي تسود المجتمع وتطبعه بحالة من عدم الاستقرار سواء على الصعيد الاقتصادي كما سبق وذكرنا أو على الصعيد الأمني تجعل الذكور يلجؤون لإقامة العلاقات غير الشرعية غير مدركين بذلك أخطار الاتصال الجنسي غير الآمن وما ينجم عنه من أمراض جنسية غير الإيدز، وعلى التوالي يأتي العام 2018 بعدد بلغ 42 حالة بين الذكور يقابلها 10 حالات بين الإناث، ثمّ العام 2019 بعدد بلغ 37 حالة بين الذكور يقابلها 15 حالة بين الإناث وهي النسبة الأعلى من حيث عدد الإصابات بين الإناث خلال الأعوام الـ 35 التي تم فيها تسجيل ومتابعة الحالات المصابة والمتعايشة مع فيروس نقص المناعة البشرية على مستوى الجمهورية العربية السورية ككل تجميعيّ)، حيث يمكن ربط هذه الزيادة في الأعداد ضمن الإناث لتبعيات الحرب على سورية، فحالات الخطف الاغتصاب التي أوجدتها حالة عدم الاستقرار الأمني بطبيعة الحال في الشارع السوريّ على امتداد أعوام الأزمة العشر شكلت بيئة حاضنة للمنحرفين والمجرمين للقيام بأفعال شاذة أخلاقياً وإنسانياً، كما أنّ الوضع الاقتصادي الذي ازداد سوءاً عاماً تلو الآخر قد يكون دفع بأعداد أكبر من الفتيات إلى امتهان إقامة العلاقات الجنسية مقابل المال لتأمين معيشتهن وإعالة أسرهن خاصة في حالة فقدان المعيل.

- التوزّع حسب طرق انتقال العدوى بفيروس الإيدز في سورية خلال الأعوام 1987حتى عام2020:

االشكل البياني رقم (3) توزع إصابات HIV/AIDS في سورية حسب الجنس من عام 1987 حتى نهاية عام 2020:المصدر(البرنامج الوطني لمكافحة الإيدز في سورية)

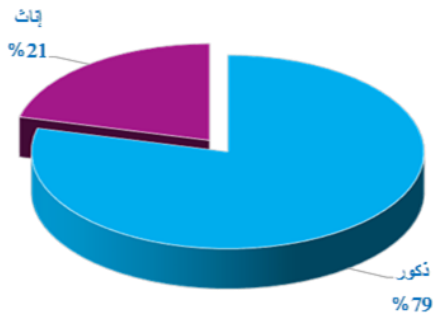

الشكل البياني رقم (4) توزع إصابات HIV/AIDS (حسب الجنس / السوريين فقط) حسب السنوات من عام 1987 حتى نهاية عام 2020المصدر(البرنامج الوطني لمكافحة الإيدز في سورية)

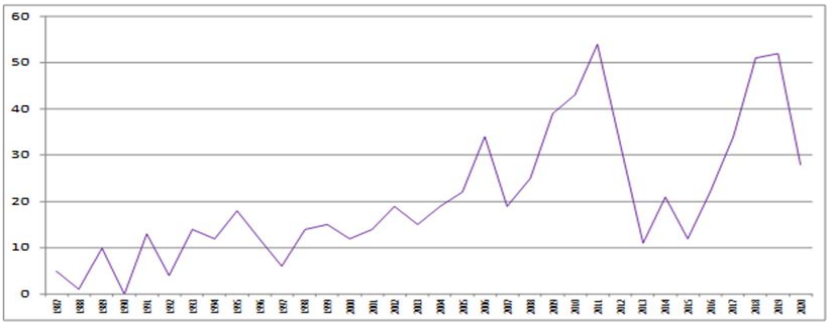

من الواضح أنّ العلاقات الجنسية تأخذ النسبة الأكبر والأكثر شيوعاً وانتشاراً بمقدار 69% وهذه الطريقة لطالما شكلت النسبة الأكبر في مسببات انتقال العدوى في العالم أجمع وليس فقط على الصعيد المحلي والسوري، حيث نجدها تشكل نسبة 80% من مجموع طرق انتقال العدوى والإصابات على المستوى العالمي حسب ما جاء في بيانات منظمة الصحة العالمية المتعلقة بفيروس الإيدز.

وبشكل متصل، نجد أنّ العلاقات بين المثليين جاءت في المرتبة الثانية بنسبة 9% من الطرق المسببة في انتقال العدوى، تليها طريقة انتقال العدوى من الزوج إلى الزوجة بنسبة 6%، وبنسبة تشكل 5% كان هناك طرق غير محددة وغير معروفة وهنا تجدر الإشارة أنّ هذه النسبة ارتبطت بعدم تحديد المرضى للاحتمالات التي يمكن أن تكون العدوى قد انتقلت إليهم بفعلها، وذلك بدواعي الخجل من الاعتراف بممارسات قد توصم بكونها لا أخلاقية أمام المسؤولين عن الرعاية. نذكر مثالاً في هذا الصدد من المقابلة التي أجرتها الباحثة مع الطبيب المسؤول عن متابعة الحالات في مدينة اللاذقية، حيث ذكر أنّ إحدى الحالات من الإناث المصابات في محافظة اللاذقية (وحسب المقابلة التي أجريت مع هذه الحالة المصابة) قد تحفظت على تحديد السبب بشكل مباشر عند طرح كافة الاحتمالات والطرق التي من الممكن أن تكون قد تسببت لها بالعدوى وكانت تنفي بالمقابل أي طريقة محتملة، وكان ارتباكها وخجلها ولغة جسدها توحي بشكل واضح أنها تخفي السبب، وهو ما يمكن تفسيره ضمنياً بأثر مجموعة القيم المجتمعية التي تمنع الحديث بشكل صريح عن العلاقات الجنسية غير الشرعية للأنثى حتى في هذه الحالة، وهذه الحالة تم تسجيلها ضمن الحالات غير معروفة السبب للعدوى.

وفيما يتعلّق بحالات الإصابة والعدوى بفيروس الإيدز، يمكن القول إنّ من أكثر الحالات التي تجعل كل إنسان يتعاطف بشكل كبير مع مصابي فيروس الإيدز هي رؤيتنا لهؤلاء الأطفال المتعايشين مع الفيروس بعد انتقال العدوى إليهم عن طريق الأم الحامل والمرضعة، المصابة بالفيروس دون سابق معرفة بإصابتها إلاّ بعد فوات الأوان، وهذه الطريقة في (انتقال الفيروس من الأم لطفلها) كانت مسبباً للإصابة بنسبة 4% من الحالات المسجلة في سورية.

الشكل البياني رقم (5) يوضح نسبة كل طريقة من طرق انتقال العدوى أو الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية HIV/الإيدز من العام 1987حتى العام 2020

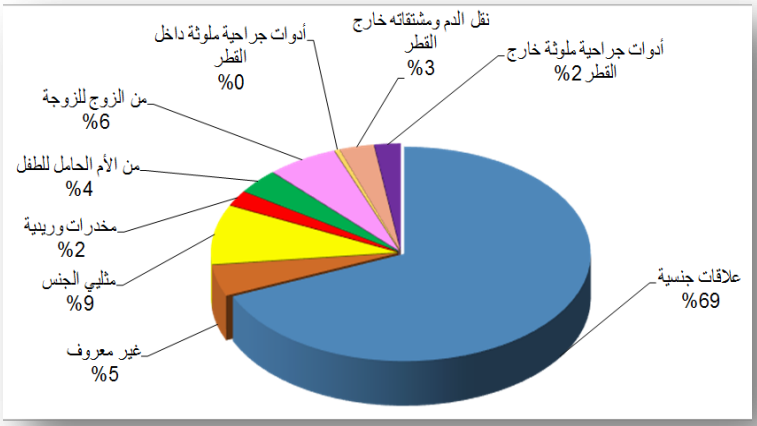

أمّا نقل الدم ومشتقاته خارج القطر فكان المسبب بالإصابة بنسبة 3%، وشكلت أدوات الجراحة الملوثة خارج القطر نسبة 2%، في حين لم تسجل طريقة الأدوات الجراحية الملوثة ونقل الدم ومشتقاته داخل القطر أي حالة.

ويمكن إرجاع انعدام تسجيل هكذا حالات لأحد احتمالين اثنين: أحدهما هو النقص في تسجيل حالات كهذه حتى إن وجدت، أما الآخر؛ فهو التشديد الكبير والحرص على التعقيم والنظافة وخاصة في غرف العمليات، كما تمّ التشديد ومنذ بداية اكتشاف الحالات على التعقيم للأدوات الطبية المستخدمة لدى أطباء الأسنان لكونها تشكل الخطر الأكبر على معظم الناس كونها أكثر انتشاراً (فمن منا لم يزر طبيب الأسنان)، بينما نجد أنّ إمكانية إجراء العمليات الجراحية حالة ليست بهذا الانتشار وأفراد المجتمع أقل عرضة لها من سابقتها.

- **الفئات العمرية للحالات المتعايشة والمصابة بمرض الإيدز في سورية خلال الأعوام 1987حتى عام2020:**

بالانتقال للتعرف على توزع الحالات المتعايشة والمصابة ضمن الفئات العمرية، نجد أنّ الشكل البياني رقم (6) يساعدنا في توضيح ذلك، حيث يمكن القول إنّ الفئة العمرية [0–14] عاماً تشكل نسبة 5% من مجموع الحالات المصابة والمتعايشة في قطرنا، وتجدر الإشارة أنّ هذه النسبة تتضمّن نسبة الحالات التي سُجلت عن طريق انتقال العدوى من الأم المصابة إلى طفلها في معظم الحالات. أما الفئة العمرية [15–24] عاماً فتشكل نسبة 13% من الحالات المصابة والمتعايشة وفي هذه المرحلة نلاحظ ارتفاعاً بعدد الحالات عن الفئة العمرية السابقة كون هذه المرحلة تتضمن مرحلة المراهقة والتطورات الفيزيولوجية والهرمونية المرافقة لها والتي قد تدفع الكثير من الشبّان– وخاصة بحال غياب رقابة الأهل وتأثير رفاق السوء وغيرها من السلوكيات– إلى محاولة اكتشاف الذات الذكورية فيزيولوجياً سواء مع الجنس الآخر من الإناث أو اللجوء إلى المثلية الجنسية.

الشكل البياني رقم (6) توزع إصابات HIV/AIDS السوريين حسب الفئة العمرية عند تشخيص الإصابة (من عام 1987 حتى نهاية عام 2020.

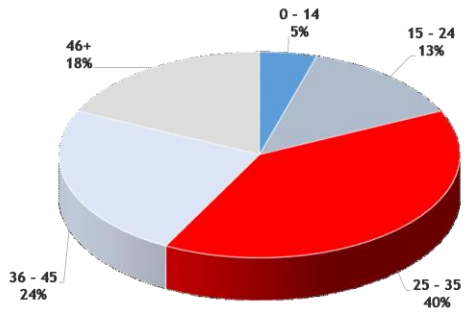

National AIDS Programme البرنامج الوطني لمكافحة الإيدز

بينما نجد أنّ الفئة العمرية من [25–35] عاماً تشكل نسبة 40% من مجموع الحالات المصابة والمتعايشة في قطرنا، ومن الواضح أنّ هذه النسبة هي الأعلى وتصل إلى النصف تقريباً من

مجموع الحالات، حيث تتصف هذه المرحلة العمرية بالاستقلالية وتنتشر بين أفرادها توجهات للسفر والهجرة سواء للعمل أو الدراسة.

فالشباب، الذين تلقوا أشكالاً مختلفة من التربية المحافظة كما هو سائد في معظم المجتمعات الشرقية، والتي كان من شأنها أن تحدّ من حريتهم في مجالاتٍ عدّة عبر مراحل تنشئتهم، وبطبيعة الحال تقييد الحرية الجنسية، يجدون في تجربة السفر فرصةً لممارسة شيء من حريتهم، وبهذا تتوجه فئة منهم إلى المساكنة، وخاصةً في الدول الأجنبية.

وقد تتعدد إقامة العلاقات الجنسية مع نساء، قد ثبت في كثير من الحالات أنهنّ من قام بنقل العدوى إليهم، وفي هذه الحالة يتم ترحيل هؤلاء الشباب حسب البروتوكول الصحي العالمي إلى بلدهم الأم سورية، بعد التأكد من إصابتهم بالفيروس.

وفي المرحلة العمرية اللاحقة [36–45] عاماً نجد أن نسبة المصابين تتراجع لتصل إلى 24% من مجموع الحالات، حيث يمكن القول إنّ تراجع نسبة تركز العدوى والإصابة بالفيروس في هذه الفئة العمرية يعود إلى تراجع في اندفاعية البشر الهرمونية والتعقل، كما أنّ الكثير من هذه الفئة يكون قد تزوج وحصل على الشريك الجنسي والعاطفي وعلى الاستقرار الأسري الذي يضعه تحت مسؤوليات العائلة والمجتمع بشكل أكبر. أما عن نسبة توزع الاصابات في الفئة العمرية الأخيرة من[46 عاماً فما فوق] نجد أنّها تقدر بـ 18% حيث يممكن القول أنّ هذه الفئة كسابقتها يزداد فيها النضوج العقلي والأخلاقي وتكثر فيها المسؤوليات والحرص على اتباع الأخلاقيات والسلوكيات التي تسود المجتمع، ولكن لا يخلو الأمر من بعض الحالات الشاذة التي قد تصاب بالمرض وهي في معظمها– في هذه المرحلة– تنشأ إما عن طريق العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج أو أنها حالات مصابة ومتعايشة مع الفيروس منذ أعوام سابقة.

مما سبق نجد أنّ الطرق والممارسات التي تتسبب بعدوى الإيدز هي في معظمها ممارسات إما مخالفة للأخلاق والأعراف الاجتماعية وحتى الدينية التي تتعلق بممارسة الجنس خارج نطاق مؤسسة الزواج المعترف بها اجتماعياً بشكل رئيسي، أو ممارسات تتعلق بجهل ولامبالاة فيما يتعلق باستخدام الأدوات الشخصية وسبل الحفاظ على الصحة. كما أنّ نقل الدم الملوّث والأعضاء والأنسجة دون التأكد من خلوّها من الفيروس لشخص معافى تسبب انتقال العدوى إليه أيضاً. ويبقى التعقيم غير الصحيح للأدوات الطبية الجراحية وأدوات أطباء الأسنان من الوسائل التي تسبب في انتقال العدوى إلى جانب انتقال هذا الفيروس من الأم المصابة إلى الطفل إما عن

طريق الحمل أو الإرضاع من الأسباب التي يمكن تفاديها بالالتزام بمعايير الصحة العالمية من تعقيم وإجراءات وقائية من عقاقير للحالات التي تستلزم ذلك، وقد نوهت مديرية الأمراض السارية والمزمنة (البرنامج الوطني لمكافحة فيروس عوز المناعة البشرية/الإيدز) في تقريرها الأخير أنّ معظم حالات العدوى عن طريق نقل الدم الملوّث ومشتقاته حدثت قبل عام 1992 وبعضها حدث خارج القطر، ولم تسجل أيّ إصابة بفيروس الإيدز ناجمة عن نقل الدم الملوّث ضمن القطر خلال السنوات الماضية.

مما تقدم يظهر جلياً أنّ الظروف التي مرت على قطرنا سواء أمنياً أو صحياً، لم تكن لتؤثر على الجهود المبذولة في محاولات التصدي لفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز ودرء أخطاره والحد من انتشاره في وطننا، وكان لوزارة الصحة والبرنامج الوطني لمكافحة الإيدز دور رائد في جعل التجربة السورية مثالاً يحتذى به ومعترفاً به عالمياً في إدارة هذا الجانب في أسوأ الظروف و أصعبها.

الاستنتاجات والمقترحات:

1. الاستنتاجات:

من خلال ما تقدم من عرض للجانب النظري والعملي من هذه الدراسة، يمكننا أن نخلص إلى مجموعة نتائج منها:

- قبول الفرضية الأولى مع ما تثبته البيانات من ازدياد مضطرد في عدد المصابين بمتلازمة نقص المناعة البشرية/ الإيدز في سورية خلال العقود الماضية.
- قبول الفرضية الثانية التي أكدتها نتائج الإحصائيات بأثر نتائج الحرب والنزاعات المسلحة على سورية في ازدياد أعداد المصابين بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز خلال الفترة الزمنية 2011–2020.
- رفض الفرضية الثالثة القائلة بتراجع الخدمات المقدمة للمصابين المتعايشين بمتلازمة نقص المناعة البشرية/ الإيدز خلال الحرب على سورية. فالواقع أنّ الخدمات المقدمة للمصابين المتعايشين بقيت على حالتها السابقة للحرب؛ حيث يمكن التعقيب على ذلك بأنّه وعلى الرغم من خروج بعض المخابر والمراكز لمتابعة الأمراض السارية والمعدية المعنية بالكشف عن الحالات المصابة ومتابعة الحالات المتعايشة مع مرض الإيدز

وتقديم المشورة والعلاج والدعم النفسي الاجتماعي في مناطق النزاع المسلح، حيث خرجت مخابر كل من محافظة إدلب والرقة ودير الزور والحسكة ودرعا وريف دمشق خارج الخدمة، ومراكز المتابعة والمشورة في محافظتي إدلب والرقة إلاّ أنّه تمّ اتخاذ اجراءات ملائمة للمصابين بتوزيع الحالات المتعايشة المتضررة على مراكز محافظتي (دمشق و حماه) لمتابعة العلاج، كما لم يحدث أي انقطاع في تقديم العلاج بأيّ شكل حتى وإن تأخّر تقديمه عن بعض الحالات المتعايشة بعدوى الإيدز في بعض مناطق الحصار في وقت سابق.

- إنّ المصابين المتعايشين بعدوى الإيدز في قطرنا العربي السوريّ– ومن خلال الملاحظة لبعض الحالات التي قد تواصلت مع الأطباء المسؤولين في فترة تواجد الباحثة – يُعاملون بشكل لائق بعيد عن الوصمة الاجتماعية وتقدّم لهم سبل المساعدة بأقصى الإمكانيات وبسرية شديدة.
- في فترة إجراء البحث وخلال عملية إجراء المقابلات وجمع البيانات، ظهرت شكوى من قبل المسؤولين عن إدارة البرنامج الوطني لمكافحة الإيدز عن النقص الشديد في أعداد مقدمي الخدمة بعد هجرة الكثير من الأطباء والعاملين المدربين وذوي الخبرة في هذا المجال خارج القطر بسبب ظروف الحرب الإرهابية على سورية وآثارها، ما شكّل عبئاً إضافياً على الكادر القائم على رأس عمله حتى الوقت الرّاهن.

2. المقترحات:

- العمل على زيادة الوعي ونشر ثقافة (الوقاية خير من العلاج) في كافة الجوانب، و بمرض الإيدز/ نقص المناعة البشرية على وجه التحديد، وخصوصاً في أوساط الجيل الناشئ من خلال الإعلام وتطبيقات التواصل الاجتماعي.
- إضافة "أنشطة" الثقافة الصحية في المجال التربوي، واستخدام عروض قصصية تصويرية تتناسب مع مختلف المراحل العمرية وعدم الاكتفاء بالتلقين وعملية الحفظ غيباً، لتكوين جانب معرفي صحي يتناسب مع مستجدات العصر الذي تسوده الأوبئة.
- دعم الكوادر الطبية ورفدها بمزيد من المختصين في هذا المجال، وتحسين أجورهم بهدف الحفاظ على خبراتهم وبقائهم في الوطن، لتحصيل أكبر قدر ممكن من الإفادة في تقديم العلاج والمشورات والدعم النفسي الاجتماعي.

- استخدام الواقيات لكلا الجنسين هي وسيلة ناجعة للحماية من كثير من الأمراض المنقولة جنسياً وليس عدوى نقص المناعة البشرية فحسب، كالأمراض الفطرية والزهري والهربس وغيرها، التي تشكل بدورها خطراً على صحة الإنسان.
- التوعية بضرورة الاهتمام بالصحة بشكل عام، بممارسة الرياضة وجعلها أسلوب حياة دونما انقطاع.
- في عصر الأوبئة الذي نعيشه، لابدّ من التعلّم والاستفادة من تجارب الغير على مستوى الدول والأفراد، من حيث سبل الوقاية من الأمراض ونشر الوعي الصحي وتطوير القطاع الصحي ورفده بالكوادر المدربة على تقديم الرعاية الصحية والنفسية على حدّ سواء.
- ويبقى الالتزام الأخلاقي والابتعاد عن السلوكيات المنحرفة هو الملاذ الآمن للوقاية من الإصابة بأي عدوى فيروسية خطيرة.
- التركيز على الجانب الاجتماعي في أثر الإصابة بعدوى فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز، من خلال وسائل الإعلام، وكيف لهذا المرض أن يغير مسيرة الحياة ويسبب القلق الدائم، ويقصي المصاب عن بيئته أو يجعل الحياة الطبيعة في استحالة.

قائمة المراجع:

المراجع العربية:

- العساف، صالح حمد.(2006). المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية. الرياض: العكيبان.
- محمد علي، النابر (2004). الأبعاد الاجتماعية للإيدز في السودان /دراسة حالة الخرطوم– رسالة ماجستير في علم الاجتماع ، جامعة الخرطوم.
- نادية، محمد، السيد، عمر(2002). علم الاجتماع الطبي، المفهوم الطبي والمجالات، دار المعرفة الجامعية.
- نكورت، إرمامانو.(د.ت). مسرد المصطلحات المناسبة لفيروس نقص المناعة البشري/الإيدز دليل المستخدمين بالإنكليزية والعربية .
- الهرفي، عطا (1989). كل ما تريد أن تعرفه عن مرض نقص المناعة المكتسب، دار الاعتصام، ط4، القاهرة، 1989.

المراجع الأجنبية:

- A.K.M.Idris,E.Elsaman and other, Sociodemographic Predictors of acceptance of voluntary HIV testing among pregnant women in a large maternity hospital, Omdurman.Sudan.2011.
- Divisions of HIV/AIDS Prevention"8.HIVand ItsTransmission Prevention and centers for control disease". 2003.

التقارير والبرامج:

- البرنامج الإقليمي للإيدز في الدول العربية/ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي UNADIS . الدليل الإسلامي لمواجهة الإيدز ،2011.
- البرنامج الوطني لمكافحة فيروس عوز المناعة البشري/ الإيدز. البروتوكول العلاجي للمتعايشين بعدوى فيروس نقص المناعة البشرية ،دمشق، 2016.
- برنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز وآخرون، الربط بين الصحة الجنسية والانجابية والخدمات المتعلقة بفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز مدخل إلى التكامل : دراسة حالة هاييتي توفير المشورة والاختيارات الطوعية الخاصة بفيروس نقص المناعة البشري: نقطة وصول إلى خدمات الصحة الجنسية والانجابية الشاملة، برنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشري/ الإيدز ومنظمة الصحة العالمية وآخرون، 2009.
- البرنامج الوطني لمكافحة الإيدز والأمراض المنقولة جنسياً في الجمهورية العربية السورية، الإيدز في سورية، د.ت.

الهيئات والمنظمات الدولية :

- منظمة الصحة العالمية، المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، الجمهورية العربية السورية "تضافر الجهود للقضاء على الإيدز في الجمهورية العربية السورية/2019، 3 نوفمبر 2020.
- وزارة الصحة في الجمهورية العربية السورية، قرار تنفيذي، نيسان/ابريل، 2020.
- صندوق الأمم المتحدة للسكان. السكان والحقوق الانجابية والصحة الإنجابية مع التركيز على وجه الخصوص على فيروس نقص المناعة البشرية/متلازمة نقص المناعة المكتسبة الإيدز – التقرير الموجز الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، نيويورك، 2002.
- منظمة الصحة العالميةWHO/ المكتب الإقليمي لشرق المتوسط. الجمهورية العربية السورية" تضافر الجهود للقضاء على الإيدز في الجمهورية العربية السورية، 2019.
- منظمة الصحة العالمية WHO/ المكتب الإقليمي لشرق المتوسط. معلومات أساسية عن فيروس الإيدز والحدّ من الوصم والتمييز في مرافق الرعاية الصحيّة، القاهرة، 2017.

المجلات والمقالات العلمية:

- المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية، متلازمة نقص المناعة المكتسبة، ***المجلة الصحية لشرق المتوسط***، المجلد 21، العدد4، رابط المقالة ، تم الاسترجاع من الرابط: https://www.marefa.org/ .
- الوكالة العربية السورية للأنباء SANA، ***مقال بعنوان: في اليوم العالمي للإيدز– سورية من دول الانتشار المنخفض و95 إصابة جديدة عام 2018***. تم الاسترجاع من الرابط، http://www.sana.sy/?p=854806 .

المراجع الالكترونية:

- مرصد الصحة العالمية، تم الاسترجاع عبر الرابط، https://www.who.int/data/gho/data/indicators/indicator-details/GHO/estimated-number-of-people-(all-ages)-living-with-hiv.2021,
- تقارير الأمم المتحدة، برنامج الأمم المتحدة لمكافحة مرض الإيدز، 2020. https://news.un.org/ar/tags/lydz .
- منظمة الصحة العالمية ، اليوم العالمي للإيدز، 2020، تم الاسترجاع من الرابط، https://www.who.int/ar/campaigns/world-aids-day/2/2020020
- منظمة الصحة العالمية، تقديرات منظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة المشترك المعني بفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز،،2014. تم الاسترجاع من الرابط: http://www.emro.who.int/ar/asd/announcements/nap-managers-meeting.html
- منظمة الصحة العالمية ،،فيروس العوز المناعي البشري/ الإيدز، 30 نوفمبر 2020. تم الاسترجاع من الرابط، https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/hiv-aids.
-

Arab References:

-Al-Assaf, Saleh Hamad. (2006). Introduction to research in behavioral sciences. Riyadh: Al-Akiban.

-Muhammad Ali, Al-Nair (2004). Social dimensions of AIDS in the Sudan/Khartoum case study - Master of Sociology thesis, University of Khartoum.

-Nadia Mohamed, Mr. Omar (2002). Medical Sociology, Medical Concept and Fields, University Knowledge House.

-Nkort, Armamano. (d. s report (A/C Glossary of appropriate terms for HIV/AIDS User Guide in English and Arabic.

- Al-Harfi ,Atta (1989). Everything You Want to Know About HIV, Sit-in House, 4th Edition, Cairo, 1989

Foreign References:

- A.K.M.Idris,E.Elsaman and other, Sociodemographic Predictors of acceptance of voluntary HIV testing among pregnant women in a large maternity hospital, Omdurman.Sudan.2011.
- Divisions of HIV/AIDS Prevention"8.HIVand ItsTransmission Prevention and centers for control disease". 2003.

Reports and programs:

-The Regional Program for AIDS in the Arab Countries/United Nations Development Program (UNADIS). Islamic Guide to AIDS, 2011.

-National Program to Combat HIV/AIDS. Therapeutic Protocol for People Living with HIV Infection, Damascus, 2016.

-Joint United Nations Program on HIV/AIDS (UNAIDS) and others, linking sexual and reproductive health and HIV/AIDS services is an integrator: Haiti case study providing voluntary HIV counselling and choices: Access Point to Comprehensive Sexual and Reproductive Health Services, UNAIDS, WHO et al., 2009.

-National Program to Combat AIDS and Sexually Transmitted Diseases in the Syrian Arab Republic, AIDS in Syria, D. T.J.

International bodies and organizations:

- WHO, Regional Office for the Eastern Mediterranean, Syrian Arab Republic "Concerted efforts to eradicate AIDS in the Syrian Arab Republic/2019, 3 November 2020.

-Ministry of Health of the Syrian Arab Republic, Executive Decision, April 2020.

-United Nations Population Fund (UNFPA). Population, reproductive rights and reproductive health with particular focus on HIV/AIDS - Summary Report Economic and Social Affairs, New York, 2002.

-WHO/EMRO. Syrian Arab Republic "Concerted Efforts to Eradicate AIDS in the Syrian Arab Republic, 2019.

- WHO/EMRO. Background on HIV and reducing stigma and discrimination in health care facilities, Cairo, 2017.

Scientific journals and articles:

-WHO Regional Office, AIDS, ***Eastern Mediterranean Health Journal***, vol. 21, No. 4, article link, retrieved from link: https://www.marefa.org./

-***The Syrian Arab News Agency (SANA)***, an article entitled: On the International Day of AIDS, Syria is a low-proliferation country, with 95 new infections in 2018. Retrieved from link, http://www.sana.sy/?p=854806.

Electronic references:

-World Health Observatory, retrieved via link, https://www.who.int/data/gho/data/indicators/indicator-details/GHO/estimated-number-of-people-(all-ages)-living-with-hiv. 2021،

-United Nations Reports, **UNAIDS**, 2020. https://news.un.org/ar/tags/lydz.

-World Health Organization, **World AIDS Day**, 2020, retrieved from link, https://www.who.int/ar/campaigns/world-aids-day/2/2020020

-WHO**, WHO and UNAIDS estimates**, 2014. Retrieved from link: http://www.emro.who.int/ar/asd/announcements/nap-managers-meeting.html.

-World Health Organization, **HIV/AIDS**, 30 November 2020. Retrieved from link, https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/hiv-aids.

الأمير بشير الشهابي الثالث (1840-1841)

الباحثة: صبا حكمت شعبان

شعبة: تاريخ حديث ومعاصر – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين

ملخّص البحث:

أدى ضعف السلطة المركزية للدولة العثمانية في القرن السابع عشر والثامن عشر إلى ظهور العديد من الأسر والزعامات المحلية القوية في بلدان المشرق العربي، كآل العظم في دمشق ، والزيادنة في فلسطين، وأيضاً المعنيين في جبل لبنان من ثمّ وصول أنسبائهم الشهابيين لاستلام الحكم بعدهم بين عامي 1697 حتى عام 1842.

الشهابيون سلالة حكمت جبل لبنان، وكان أبرز حكامها الأمير بشير الشهابي الثاني الذي يُعتبر آخر الأمراء الفعليين الذين حكموا الجبل، إذ أنّ الأمير الذي تلاه وهو الأمير بشير الشهابي الثالث كان مجرد أمير صوري تم تعيينه من قبل العثمانيين على عكس الأمراء السابقين الذين كان يتم اختيارهم عن طريق السكان، وكان ألعوبة بيد الإنكليز بالإضافة لعجزه الكامل عن تحقيق التوازن بين النصارى والدروز لذلك لم يستمر في الحكم إلا سنتين منهياً بذلك حكم الشهابيين للجبل عام 1842.

الكلمات المفتاحية: جبل لبنان، الشهابيون، الدولة العثمانية، الانكليز، الإمارة.

Prince Bashir Shihabi III (1840-1841)

Abstract

The weakening of the central authority of the Ottoman Empire in the seventeenth and eighteenth centuries to the emergence of many powerful families and local leaders in the countries of the Arab Mashreq As the AL_AZM family in the Damascus and the Ziyadiyya in Palestine, as well as the ma'anis in Mount Lebanon, after the arrival of their Chehab relatives to receive the ruling after them between 1697 and 1842

The Chehabs are a dynasty that ruled Mount Lebanon, and its most prominent rulers was Prince Bashir Al_Shihabi, who is considered the last of the actual princes who ruled the mountain. The population was a puppet in the hands of the English, in addition to its complete inability to achieve a balance between the Christians and the Druze, so he did not continue to rule for only two years, thus ending the rule of the Chehabs on the mountaine in 1842 .

Key words : Mount Lebanon,The Chehabs, Ottoman empire ، British,Princedom. -

المقدمة :

الأسرة الشهابية أو الشهابيون هم سلالة حكمت لبنان بعهد العثمانيين، تسلموا الحكم من أنسبائهم المعنيين الذين انتهى حكمهم الفعلي بموت أميرهم فخر الدين المعني الثاني وتسلم ابن أخيه ملحم من ثم الأمير أحمد الحكم لفترة قصيرة جداً وانتهت سلالتهم في عام 1697. وتم انتخاب الأمير بشير الشهابي الأول أميراً وباستلامه بدأ حكم الشهابيين الذي يعود أصلهم إلى قريش وهم من بني مخزون أتوا جبل لبنان من منطقة حوران في جنوب سوريا، واستوطنوا وادي التيم في جنوب لبنان. تتالى الأمراء الشهابيون على هذه الإمارة وكان الأمير بشير الشهابي الثاني أهم رجل دولة في الدولة العثمانية وأحد أشهر الأمراء في تاريخ لبنان وبلاد الشام عموماً حكم بين عامي (1788-1803) و عاصر فترة ضعف وعجز الدولة العثمانية وازدياد الأطماع الأجنبية ومن أبرز الأحداث في عهده الحملة المصرية على بلاد الشام ووقوفه لجانب محمد علي باشا ضد الدولة العثمانية ما أدى لعزله عن الحكم نتيجة لموقفه من الحملة المصرية آنفة الذكر بعد فشلها ونُقل مع أسرته إلى جزيرة مالطة من ثم سُمح له بفرمان سلطاني البقاء في استانبول وبقي فيها حتى وفاته 1850. على إثر ذلك عمدت الدولة العثمانية إلى إعادة النظر في إدارة شؤون الولايات التابعة لها فبعد أن كانت الولايات العثمانية وخاصة العربية تحكمها أسر محلية وراثية رأت أن من الأفضل لها أن تقوم باختيار الحاكم المناسب لتضعه على رأس الإدارة في كل ولاية ويكون مرتبطاً مباشرة بالباب العالي فتم اختيار الأمير بشير الشهابي الثالث لحكم الجبل فكان هذا البحث الذي نحن بصدد الكتابة عنه عرضاً.

إشكالية البحث:

_ما هي السمة الغالبة لفترة حكم الأمير بشير الشهابي الثالث هل كانت فترة فتن واضطرابات بمجملها أم شهدت فترات أمن واستقرار؟

_ما هو التأثير الكبير الذي أحدثه عهده في تاريخ جبل لبنان وهل كان لهذا التأثير دور فعال في تغيير مستقبل الجبل بالمعنى الفعلي وإذا كان ذلك صحيحاً من هو المستفيد الأكبر من قلب نظام الحكم والإدارة؟

_ما العامل الأساسي في نجاح واستمرار حكم أسرة أو إمارة هل هي السياسة المتبعة من قبل أمرائها أم الوضع الاجتماعي لسكانها على اختلاف طوائفهم راضين بالعيش المشترك في ظل إمارتهم أم أن هناك أيادٍ خفية في كل حكم أو عهد تكون هي الكفيلة بإبقائه أو القضاء عليه متى شاءت؟

أهمية البحث :

تُعد فترة استلام الأمير بشير الشهابي الثالث لجبل لبنان نقطةً فاصلة وحدثاً مهماً لا يمكن التغاضي عنه أثناء دراسة أوضاع جبل لبنان في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، فعلى الرغم من قِصر فترة حكمه إلا أنها شهدت نهاية حكم الأسر المحلية وبتعبيرٍ أدق نهاية حكم الإمارة النصرانية بشكل عام ممثِلاً عهده انتصاراً للسياسة العثمانية، فكان من الأهمية بمكان الوقوف عند هذا التغيير والدخول بتفاصيل عهد الأمير ومعرفة السياسة العثمانية المتبعة وسبب انتصارها ونجاحها في قلب نظام الحكم والإدارة في الجبل وتحويله لنظام الحكم العثماني المباشر.

الجديد في البحث: الكشف عن أحداث الفترة التي حكم بها الأمير بشير الشهابي الثالث وبمعنىً أدق سبب قِصر فترة حكمه وأهم الأحداث الي شهدتها.

أهداف البحث وأسئلته:

التعرف على أوضاع جبل لبنان بين عامي 1840–1841 وهي الفترة التي حكم فيها الأمير بشير الشهابي الثالث وقد أجاب البحث عن العديد من التساؤلات منها على سبيل المثال:

_هل كان ل قِصر مدة حكم الأمير تأثير على غنى هذه الفترة بالأحداث أم أنها فترة جامدة عابرة بين سلفه وخلفه لا تأثير لها أبداً؟

_هل كانت سياسته استمراراً ل سلفه أم لا علاقة تربطهما سوياً سوا تشابه إسميهما فقط؟

_ ماهي السمة الغالبة في فترة حكمه وهل تمكن من إيجاد حل أو اعتماد سياسة مكنته من الموازنة بين أطراف النزاع في بلاده؟

حدود البحث:

يرتبط البحث بإطار زمني يحدد بدايته عام 1840، وهو عام وصول الأمير بشير الشهابي الثالث لحكم الجبل، ليشكل نهايته عام 1841 وهو عام عزله ونهاية حكم الشهابيين للجبل.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

هناك العديد من الدراسات التي تحدثت عن أحداث جبل لبنان في فترة استلام الأمير بشير الشهابي الثالث:

–المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين 1788–1861 للدكتور رياض الغنام حيث شمل هذا الكتاب على توضيح دقيق لفترة استلام الأمير بشير الثالث، فنجد في الفصل الأول الحديث عن الأمير بشير الشهابي الثاني من ثمّ خصص الفصل الثاني للحديث عن فترة استلام الأمير بشير الثالث وتتالت فصول كتابه في ذكر أحداث لبنان حتى احتلال جبل لبنان 1860 من قبل فرنسا، فكان مرجعاً واضحاً ودقيقاً استطعت الإفادة منه لمعرفة تسلسل أحداث الفترة التي أقوم بدراستها وترتيب أحداث هذه الفترة بما يتناسب مع موضوع بحثي، فاعتمادي على هذا الكتاب بالدرجة الأولى مكنني من كتابة الخطوط العريضة لبحثي بطريقة واضحة ومتسلسلة.

– لبنان من الإمارة إلى المتصرفية 1840–1861 في عهد القائمقاميتين للدكتور مارون رعد والذي كان أقل تفصيلاً من الكتاب السابق فقد حوى الفصل الأول من كتابه والذي اتخذ عنوان نهاية الإمارة الشهابية في الجبل تفاصيل قليلة عن الأمير بشير الشهابي الثاني ونفيه من ثمّ استلام الأمير بشير الثالث وبعض أحداث عهده وعزله في النهاية، وفصول كتابه أيضاً تتالت في ذكر وضع الجبل بعد نهاية الإمارة الشهابية. فكان مرجعاً استفدت منه أيضاً في مطابقة الأحداث مع الكتاب الأول وذكر تفاصيل لم تكن قد ذُكرت في الكتاب آنف الذكر باعتبار أن الكتابين اشتركا في تفاصيل عدة كالحرب الأهلية الأولى 1841.

– تاريخ لبنان الحديث كمال الدين الصليبي الذي أيضاً شمل توضيحاً كاملاً من دون ترتيب واضح للأفكار فمثلاً في الفصل الأول من كتابه تناول الإمارة الشهابية بشكل

عام وخصص الفصل الثاني للأمير بشير الشهابي الثاني أما فصله الثالث فتحدث به عن نهاية الإمارة وضمناً الأمير بشير الثالث. اعتمد في كتابه على طريقة السرد من دون تخصيص فقرات أو أفكار رئيسية فكانت فصوله أفكاراً متتالية لا فاصل بينها، ففي الفصل الثالث مثلاً نجده يتحدث تفاصيل عن نهاية الأمير بشير الثاني من ثمّ فترة الأمير بشير الثالث من دون ذكر عنوان فرعي يوضح انتقالنا لفترة حكمه، بحيث لم أستطع البحث عن فكرة معينة في كتابه إلا إذا قرأت الفصل كاملاً ، بالإضافة إلى أن عدد صفحات فصوله قصيرة نوعاً ما ولا تحتوي تفاصيل كثيرة، اكتفى بعدة صفحات للحديث عن عهد أمير من الأمراء سابقي الذكر من ثم أيضاً كباقي المراجع يستكمل الحديث عن وضع لبنان بعد نهاية الإمارة الشهابية.

- حصر اللثام عن نكبات الشام لشاهين مكاريوس فنجد في هذا الكتاب تفصيلاً وسرداً عن مدن الشام وطوائفها المتعددة وولاتها وسياستهم المتبعة أيضاً من دون عرض فصولٍ. إنما اعتمد على عناوين فرعية في مجمل الكتاب، من بين العناوين أصل الدروز وأصل الموارنة من ثمّ الحديث عن أحوال جبل لبنان إلى سنة 1860.فكانت إفادتي من هذا الكتاب في هذا الجزء بالتحديد فتحدث عن الأحداث ذاتها التي ذكرتها المراجع السابقة بطريقة أخرى، وذكر تفاصيل أدق عن الحرب الأهلية الأولى 1841من ثمّ أيضاً استكملت فصوله وضع الجبل حتى 1860.

الأمير بشير الشهابي الثالث:

أ. توليته للحكم وصفاته:

على إثر نفي الأمير بشير الشهابي الثاني وتبدّل سياسة الدولة العثمانية في طريقة اختيار حاكم جديد [1] تعيّن على الدولة العثمانية اتباع سياسة جديدة في حكم الجبل يكون الأمير من خلالها تابعاً للدولة العثمانية[2]، فوقع الإختيار على الأمير بشير ملحم

[1]– ياغي، إسماعيل أحمد: تاريخ العالم العربي المعاصر، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2000، ص142.

[2] – حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د جورج حداد، دار الثقافة، بيروت– لبنان، ج1، ص 343.

الملقب بأبي طحين[3] الذي لم يكن من الأمراء المعروفين قبل سنة 1840 حيث كان أحد عملاء الإنكليز في جبل لبنان أثناء الحملة الأنجلو عثمانية ضد إبراهيم باشا وكانت مهمته تجييش العامة ضد الحكم المصري بشكل عام، وعلى الرغم من وقوف الأمير ملحم إلى جانب الأمير بشير الثاني خلال انتفاضة سكان المقاطعات اللبنانية على القوات المصرية في بلاد الشام إلا أنه ما لبث أن أصبح في الطرف المقاوم لسياسته ومخططاته متعاوناً مع العمال الإنكليز والعثمانيين وذلك لرغبته بأن يخلف الأمير بشير الثاني في إمارة الجبل.

وبالفعل اختاره العثمانيون والإنكليز معاً ليخلف الأمير بشير الشهابي الثاني ولكن بقي ذلك طيّ الكتمان ودون إعلان لتنتهي مهلة الثمانية أيام التي أعطيت للأمير الأخير للتسليم[4]. من ثمّ دُعي الأمير بشير ملحم قاسم من قبل السر عسكر[5] عزت باشا للنزول إلى جونيه[6] وتم الاتفاق مع أحد العملاء الإنكليز ويدعى ريتشارد وود[7] على

*3 – لمعاطاته التجارة في هذا الصنف يُنظر بازيلي، قسطنطين: سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو–روسيا، 1989، ص 307–313.

4 – رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز(1804–1841)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت–لبنان، 1966، ص 204–211.

*5– سَر: تعني لغة الرئيس وكثيراً ما تسبق الأسماء لتدل على الرئاسة وقمة الشيئ ونحوه، سر عسكر: قائد العسكر. يُنظر حلاق، حسان و صباغ، عباس: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية(المصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية والعائلية)، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، ط1، 1999، ص 115.

*6 – منطقة تقع في لبنان شمال بيروت وهي أحد المناطق السياحية في جبل لبنان ومركز قضاء كسروان. نجّار، إسكندر: قاموس لبنان، تر ماريا الدويهي و جان هاشم، دار الساقي ، لبنان، 2018، ص 98.

*7 – ريتشارد وود من عائلة بريطانية عملت في الشرق عام 1800 في خدمة شركة المشرق يحيد الغموض بمكان ولادته وبهوية والدته لوسي إذا كانت أوروبية أم مشرقية ويُذكر أنه نصف أرمني ونصف يهودي وبعد أن أتقن الإيطالية والفرنسية واليونانية والتركية، عمل على خدمة المصالح البريطانية فأوفد إلى سوريا بهدف معلن هو دراسة اللغة العربية لمدة سنة ولكن السبب الحقيقي كان التجسس على نشاطات المصريين الذي سيطروا على سوريا(حملة ابراهيم باشا)، وقد تلقى وود دروسه العربية افي بلدة

إعلان تولي بشير ملحم حاكماً على الجبل، وتمت دعوة أعيان البلاد في العاشر من تشرين الأول حيث تلا وود على مسامعهم الفرمان السلطاني الذي قضى بعزل الأمير بشير عمر(بشير الثاني) وتعيين بشير ملحم(بشير الثالث) مكانه أميراً على الجبل[8].

كان الأمير بشير الشهابي الثالث وبشهادة معاصريه على جانب كبير من الغباء السياسي وعدم الأهلية لتولي الأحكام العامة، وكان ضعيف الرأي سيئ العمل على درجة عالية من العجرفة والتكبر جعله يتوهم بأنه قادر على القيام بما كان يفعله سلفه، على الرغم من نيته وحيازته نوع من الشجاعة إلا أنه لم يملك أياً من الصفات التي تليق بحاكم شعب فليس لديه خبرة، بصيرة، طباعاً جيدة، قدرة على حبك المؤامرات، ولا طلعة مهيبة، وكان بخيلاً سفيه اللسان ليس لديه محاسن في جودة أخلاقه وصفاته[9].

ب. الدور البريطاني في تعيينه:

لاشك أن العمال البريطانيين قاموا بدور مهم في تولية الأمير بشير الشهابي الثالث ويعود ذلك إلى أن البريطانيين كانوا يرغبون بالتخلص من الأمير بشير الشهابي الثاني الذي كان ميالاً للفرنسيين ويعمل على تحقيق أهدافهم ويسير وفق سياستهم وقد حصلوا على ذلك وتمكنوا من الحصول على موافقة العثمانيين في تولي الأمير بشير ملحم حيث وقع هذا الأمير تحت سلطتهم طوال فترة حكمه. إذ قامت السفارة البريطانية بإرسال مستشار خاص له هو فرنسيس مسك(البيروتي) والذي أقام معه بمقربة من إقامة وود في

غزير كسروان على الخوري أرسانيوس الفاخوري اليهودي الأصل والذي اعتنق المسيحية على المذهب الماروني، وكان يتعامل باستمرار ويقدم خدماته للقناصل البريطانيين على الرغم من توجهات البطريركية المارونية الميالة للسياسة الفرنسية. وكان له دور في إثارة التمرد ضد إبراهيم باشا(ابن محمد علي باشا وقائد حملته على تركيا) وتلقى 15 ألف قرش ثمناً لأتعابه. مخبر القنصلية، https/www.alhayat.com، تاريخ التحميل 18 أيار 2019 الساعة 11,58.

[8] – الزيدي، مفيد: العصر العثماني، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، 2009، ص 142.

[9] – حتي :تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص 343.

السراي. هذا ما جعل فرنسا في الطرف الآخر مستاءة من تحيز الأمير بشير للإنكليز ولذلك قامت بتحريض أهالي الجبل مراراً عليه[10] .

ج. موقف أهالي الجبل من اختياره كأمير عليهم:

تقارب موقف أهالي الجبل (الموارنة والدروز) من اختيار الأمير بشير الشهابي الثالث حيث لم يكن الدروز وحدهم كارهين له إنما أيضاً الموارنة(على الرغم من كونه نصرانياً) لأنهم رأوا فيه أنه لا يشبه سلفه إلا بالإسم. فالدروز قبلوا به في البداية لأمرين أولهما تخلصا من استمرار حكم الأمير بشير الشهابي الثاني، والأمر الثاني أنهم وجدوه ضعيفاً لا يستطيع مناهضتهم ومعاداتهم خصوصاً أن زعماءهم وأعيانهم كانوا قد عزموا على إعادة ما كانوا قد فقدوه من أملاك ونفوذ في زمن سلفه[11]، وفي ذلك يقول بروسبر بوريه القنصل الفرنسي في بيروت آنذاك (قلما وجدت قطعة أرض لا نزاع عليها بين نصراني ودرزي)[12].

أما الموارنة فكانوا يرغبون باستمرار حكم الأمير بشير الشهابي الثالث وذلك حتى لا يضع العثمانيون حاكماً أجنبياً على الإمارة لذلك وافقوا على توليته الحكم كمقدمة لإعادة الأمير بشير عمر(بشير الثاني) عندما تسمح الأوضاع بذلك[13].

الأوضاع في عهده :

سياسته الداخلية تجاه القوى المقاطعجية*[14](وخاصة الدروز) : على الرغم من قصر المدة التي أمضاها الأمير بشير الشهابي الثالث في الحكم وهي ستة عشر شهراً

---

[10] أبكاريوس، إسكندر: نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تحقيق عبد الكريم إبراهيم السمك، دار رياض نجيب الريس، لندن، 1987، ص 40-46.

[11] – الصليبي، كمال الدين، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، ط7، 1999، ص 78.

[12] ISMAILE, A, 1958- Histoire du libanon (1840-1861), Beyrouth, p 109.

[13] – الصليبي : تاريخ لبنان الحديث ، ص 78ص79.

*[14] – المقاطعجي تعني زعيم إقطاعي وارث لزعامته على مقاطعة معينة تتحدر إليه توارثاً من عائلته المخولة بالسلطة وهو مصطلح كان يطلق في العهد العثماني للدلالة على متولي تفاصيل الإقطاعات في الدفتر خانه وهو أيضاً صاحب الإقطاع الذي عليه جمع الأموال من الإقطاعات وتقديم جزء كبير منها

غير أنها مليئة ومثقلة بالأحداث[15]].حيث ساهمت سياسته الداخلية بتأزيم الوضع بين سكان الجبل (الموارنة والدروز) فلو أنه نفذ الفرمان السلطاني الذي عينه أميراً على جبل الدروز والذي دعاه إلى القيام بواجبات المنصب الذي أُوكل إليه وإدارة الشؤون التي هي من مهامه وصلاحياته بعدالة وحكمة. وأن يقوم أيضاً بحماية الأهالي والعشائر ومحاولة إيجاد التوازن بين أهالي الجبل لوقّر عليهم وعلى نفسه الكثير من الصراعات والمآسي الدموية وخاصة إبان الحرب المعروفة بحركة 1841 [16].

فقد بدأ الأمير بشير الثالث حكمه بسياسة اعتمدت على معاداة المقاطعجيين وخصوصاً الأعيان الدروز منهم. ولم يكتف بما كان يوجهه إليهم جهراً من قارس الكلام والإزدراء بهم وبعلاماتهم وألقابهم وأيضاً الإستهانة بعاداتهم وتقاليدهم والإساءة لآدابهم. بل أيضا قام بانتزاع ومصادرة بعض أملاكهم مثال نزع أرض الرمادة في عنجر[17]ومطاحنها من المشايخ التلاحقة وخصّ بها أنسبائهم الشهابيين. واستمر أيضاً بالتوعد لهم وتهديدهم عندما يحضر شيوخهم إلى مجلسه بأنه سوف يجردهم من إمتيازاتهم المقاطعجية. وكان يصرح أمامهم بأنه لن يبقى لشيخ درزي أو أي شيخ منهم ظلاً لسلطة ما. وأنه ومن غير أن يحسب حساب تبعات سياسته تلك بأنه بعد تجريدهم مما يملكون سوف يوزع إقطاعاتهم على أقاربه وأنسبائه.[18].

للسلطة العثمانية. حلاق و صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ص 208.

[15] – الزيدي: العصر العثماني، ص 143.

[16] – الشدياق، طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت–لبنان، 1970، مجلد2، ص474 ص 475.

*[17] عنجر أو حوش موسى كما تسمى: بلدة لبنانية تقع في محافظة البقاع شرقي لبنان. تمتد البلدة على مساحة 20كم مربع وعدد سكانها 2400 نسمة أغلبيتهم الساحقة من الأرمن، في موسم الصيف يزور البلدة الأرمن من الشتات حيث يزداد عدد سكانها الثلث تقريباً، بناها الأمويون بالقرب من نبع معروف باسم عين جرذا بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك لتكون محطة تجارية على مصلّبة الطرق التي تربط سوريا بفلسطين، والساحل بغوطة دمشق، قبل أن يدمرها الخليفة مروان الثاني عام 744م. نجّار: قاموس لبنان، ص65.

[18] – الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، ص 474–478.

وأيضاً لم يكتف بذلك بل حرض فلاحي دير القمر[19] النصارى على مشايخهم النكديين. وأرسل الشيخ عيد الخازن إلى المدينة محافظاً لها نكاية بمشايخها وإصراراً منه على سحب السلطان المقاطعجية منهم.

واستمر في مضايقة الأمراء الأرسلانيين أولاد الأمير عباس الذين خلفوا والدتهم الأميرة حبوس الأرسلانية[20] في حكم مقاطعة الغرب الأقصى لخلاف على بعض الضياع الواقعة على الحدود المشتركة لعهدتيهم.

تحركات الدروز بعد عودة زعمائهم من المنفى:

كان بعض الأعيان الدروز أمثال نعمان وسعيد جنبلاط [21]وغيرهم قد أعادهم محمد علي باشا من منفاهم في مصر ومن سنار في بلاد السودان ليقفوا إلى جانب ابنه إبراهيم باشا في بلاد الشام ويدعموا سياسته الداخلية ضد الدولة العثمانية وضد النصارى القائمين بخدمتها بعد العزلة الشعبية التي أحاطت به في مختلف أنحاء مناطق سوريا. عندما وصلوا بعد خروجهم من المنفى كما ذُكر كان قد انسحب المصريون من المناطق

*19 – قرية لبنانية تقع في منطقة الشوف في جبل لبنان للبلدة مكانة هامة في تاريخ لبنان حيث كانت عاصمة للأمراء المعنيين. أُدرجت سنة 1945علا لائحة التراث العالمي. كانت من البلدات القلائل التي سلمت من التهجير والتدمير إبان حرب الجبل سنة 1983 بين القوات اللبنانية ذات الأغلبية المسيحية والحزب التقدمي الإشتراكي ذي الأغلبية الدرزية. نجّار: قاموس لبنان ، ص122.

*20 – ابنة الأمير بشير بن قاسم الأرسلاني من أحفاد الأمير جمال الدين أرسلان الذي شهد معركة مرج دابق، ووالدة الأمير شكيب أرسلان عاشت نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر أيام اضطراب أحوال البلاد السياسة ، ولدت سنة 1768وتزوجت الأمير عباس بن فخر الدين الأرسلاني وكانت ذات شخصية نادرة. وعند وفاة زوجها كان أولادها صغار ليس فيهم من يصلح للإمارة. فقامت بها، ويُقال أنها ماتت بدسيسة من الأمير بشير الثاني عام 1836. الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، جزء 2، ط15، 2002، ص164.

*21 – آل جنبلاط من العائلات المشهورة في لبنان وهم كرد الأصل دروز المذهب يسكنون اليوم في قضاء الشوف بجبل لبنان، وتعد بلدة المختارة قاعدة لهم وقد لعبت هذه الأسرة دوراً سياسياً فاعلاً أيام الدولة العثمانية في شمالي الشام وفي جبل لبنان ودوراً مماثلاً في تاريخ لبنان الحديث يُنظر . سعيد ونعمان جنبلاط كانا من زعماء الدروز الذين فقدوا مكانتهم في عهد بشير الشهابي الثاني. يُنظر غنام، رياض: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، دار معن، بيروت–لبنان، ط1، 2014، ص 19–22.

الساحلية[22]، فكان وصولهم متأخراً، اتجهوا على إثر ذلك للأمير بشير الشهابي الثالث الذي كان متواجداً في عكا لمحاربة المصريين حيث كان استقباله لهم استقبالاً جافياً ما أدى لنفورهم منه منذ البداية، فما كان منهم إلا أن توجهوا لديارهم ووجدوا أقاربهم وأصدقاءهم في حال يرثى لها، فيما نعم النصارى بالبحبوحة والرخاء، وكان عدد من النصارى يمتلكون أراضٍ كانت لهم فيما مضى فانضموا لسائر المقاطعجين الدروز في مطالباتهم بإعادة امتيازاتهم وما كانوا يملكون من إقطاعات وممتلكات والتي كانت قد صودرت منهم في عهد سلفه بشير الشهابي الثاني[23].

لكن الأمير بشير الثالث ناصبهم العداء ووقف بوجههم ورفض إعادة أملاك بعضهم على الرغم من حصولهم على فرمان سلطاني بذلك أمثال أمين أرسلان، ففي الوقت الذي استُقبل هؤلاء بالحفاوة والترحيب من قبل أنصارهم كانوا كما ذكرنا استُقبلوا بالإهانة والكلام الذي يطعن بكرامتهم من قبل الأمير الجديد . فنقم هؤلاء الدروز والأعيان على بشير الشهابي الثالث وعلى سياسته التي اتصفت بالعجرفة والبطش والمحاباة وعدم المبالاة، ووجدوا فيه عائقاً يقف في وجه عودة نفوذهم وممتلكاتهم وامتيازاتهم أيضاً[24].

فعملوا على إسقاطه وحاولوا التنسيق مع إخوانهم الموارنة الناقمين عليه أيضاً وجلهم من العامة (فلاحون ورجال دين) لكنهم لم يوافقوا لأنه وبغض النظر عن وقوفهم ضده ورغبتهم في عودة الأمير بشير الثاني إلا أنهم كانوا مستفيدين من السياسة التي اتبعها الأمير ضد هؤلاء لذلك عندما حاصر الدروز الأمير في دير القمر من أجل إسقاطه هبّ المستفيديون من هذا الوضع وعلى رأسهم الكنيسة المارونية للدفاع عنه على الرغم كما ذكر من الخلافات والإشكالات التي كانت بينهما، فمارونيته والخوف من تعيين

[22] – فريد بك، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت–لبنان، 1981، ص 468–477.

[23] – الصليبي: تاريخ لبنان الحديث ، ص 77.

[24] – زكّار، سهيل: تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر، التكوين للدراسات والترجمة والنشر، دمشق–سوريا، 2006، ص215.

أمير شهابي مسلم في حال إسقاطه أو حاكم عثماني من خارج البلاد دفعهم للوقوف لجانبه والدفاع عنه[25] .

ومع ذلك استمر الأمير في سياسته المدمرة فصعّد عداءه لمناصب الدروز وأغضى عن الإصغاء إلى نصح البطريرك وسبب له العديد من المشاكل وكان باستطاعة الأخير أن يتخلى عنه ويقف إلى جانب الدروز ليتم تبديله بأمير جدير بالإمارة إلا أنه خشي مخاطر التبديل، وظل واقفاً إلى جانبه ليس من أجل الأمير كشخصه إنما فقط لمارونيته، وعندما حاول الدروز إسقاطه بالقوة اصطدموا بالكنيسة المارونية وابناءها، فتحولت الحركة الأولى من حركة سياسية عسكرية ترمي إلى إسقاط الأمير الحاكم إلى حركة طائفية بسبب ما نشر الأمير والكنيسة من مقولات تشحن النفوذ[26].

المنشور البطريركي

في صيف 1841 أذاع البطريرك الماروني منشوراً وتم تعميمه على جميع مقاطعات الجبل حيث اعتبر المقاطعجيون الدروز أن هذا المنشور هو خطة للقضاء على جميع ما يتمتعون به من حقوق وامتيازات خصوصاً البند الثالث منه والذي يدعو إلى (أن يقام لدى الحاكم اثنا عشر شخصاً مشيرين منتخبين بأصوات الشعب وذلك من أجل الشورى والمداولة في أمور الحكم وصوالحه).حيث أن هذا المنشور لم يؤكد على الوكلاء فقط إنما أيضاً وردت فيه نقاط مهمة منها تخصيص الحكم في جبل لبنان بالأسرة الشهابية المارونية، ووضع متسلم في كل مقاطعة لحفظ النظام وجباية الضرائب، والأخطر من كل ما ذكر هو ما أورده المنشور من أن الموارنة بأجمعهم أينما وجدوا سواء في جبل لبنان أو في أي مكان آخر فهم تحت حماية الدولة الفرنسية كما كانوا في السابق[27].

وكان قد اعتبر المقاطعجيون الدروز هذا المنشور بأنه يستهدف صلاحياتهم وسلطاتهم التي بقوا يتمتعون بها. وردوا على منشور البطريرك بمنشور آخر أكدوا فيه

---

[25] – مصطفى، نادية محمود: العصر العثماني من القوة و الهيمنة إلى المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة–مصر، 1996، ص 295–298.

[26] – الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص 78ص 79.

[27] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ص165.

سلطاتهم، حيث أن منشور البطريرك كان قد ظهر فيه مساعيه في تحقيق استقلال سياسي وكانت سنة 1840 سنة انكشفت فيه مساعي البطريرك يوسف حبيش[28] لإقامة إمارة مارونية، وذلك أثناء تقديمه عريضة وجهها للحكومة العثمانية وكانت أهم نقطة فيها هي إصرار الكنيسة على أن يكون الحاكم في جبل لبنان بحسب المعتاد القديم أي مارونياً من العائلة الشهابية.

حيث سعت الكنيسة المارونية لتحقيق استقلالها وزعامتها على رعاياها الموارنة وربط هذا الاستقلال وتلك الزعامة بالأمة الفرنسية، ولكثرة ما روجت أهدافها ومبادئها كان السكان ينتظرون ظهوراً وشيكاً للأسطول الفرنسي لتحريرهم من الهيمنة العثمانية[29]. بالإضافة إلى سعيها إلى قطع الروابط السياسية والإجتماعية التي تربط الفلاحين الموارنة بمقاطعجييهم الدروز عبر قطع الرابطة الإسمية أو رابطة الإقطاع بين (الفلاح الماروني وسيده الدرزي وبالعكس)، هذا أدى إلى قيام تحالف جديد بين الأمير والكنيسة والأهالي الموارنة في مواجهة أعيان الدروز وخاصة العائدين منهم لاسترجاع مقاطعاتهم المصادرة منهم، فإن هذا الطابع الطائفي كان يحول دون تحقيق أي تفاهم بين الدروز والموارنة الذين بدورهم اهتموا ببقائهم على رأس إقطاعاتهم يمارسون عليها نفوذهم وسلطاتهم ويتوارثونها أيضاً، وفي الوقت الذي اتجه الموارنة نحو الكنيسة كمؤسسة بديلة عن الزعماء

*[28]– وُلد في 27 نيسان 1787 في ساحل علما –كسروان، درس في مدرسة عين ورقة ثم سمي قسيساً على يد المطران أنطون الخازن في 1814 وعينه بعدها رئيساً على دير سيدة بقلوش في البلدة عينها . ثم نقله لاحقاً إلى خدمة رعية بيروت البطريرك يوحنا الحلو(1809–1823) الذي ما لبث أن قام بترقيته أيضاً إلى الدرجة الأسقفية على أبرشية طرابلس 1820. وبعد وفاة البطريرك الحلو اجتمع الأساقفة في كنيسة سيدة قنوبين وانتخبوا المطران يوسف حبيش بطريركاً على الطائفة المارونية في 1823. وبعد مسيرة دامت حتى 1845 توفي البطريرك حبيش بعد أن حقق إنجازات مهمة على عدة صعد.
https://arabyy.com تاريخ التحميل 24 أيلول 2022 الساعة 1.00 مساءً .

[29] – تشرشل ، تشارلز: بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من 1840إلى 1860، ترجمة فندي شعار ، دار المروج ، بيروت–لبنان، 1984، ص 28 – 30.

والأعيان المقاطعجيين، حاول الدروز الاتفاق مع بعص أعيان النصارى على تغيير الأمير بشير والإتيان بحاكم شهابي آخر يراعي مصالحهم المقاطعجية[30].

مسألة الديوان:

في هذا الجو المحموم جاءت دعوة من والي صيدا يدعو فيها الأمير بشير الشهابي الثالث ل تشكيل مجلس منتخب ويترأسه بذاته أو وكيل ينوب عنه، ويكون هذا المجلس مكوناً من ثلاثة أعضاء من الموارنة وثلاثة آخرون من الدروز وعضو واحد لكل من السنة والشيعة والروم والأرثوذوكس والروم الكاثوليك، أي أن يتكون المجلس من عشرة أعضاء تكون مهمتهم الأساسية فصل الدعاوى والمسائل الخلافية وفقاً للشرائع وأوجب أن يقوم هؤلاء الأعضاء بالتوقيع على القرارات المتخذة في هذا المجلس[31].

حاول الأمير بشير تشكيل هذا المجلس وأتى ببعض الأعيان النصارى دون أن يجري انتخابهم من قبل الأهالي ووضع الشيخ بشارة الخوري[32] صالح الفقيه قاضياً ورئيساً للمجلس بالنيابة عنه. لكن الدروز لم يتمثلوا في المجلس ولم يقبلوا بوجوده أيضاً ورفضوا الإشتراك في الديوان لأنه يقيد حريتهم في سياسة رعاياهم. أيضاً رفض البطريرك المشاركة واشترط للمشاركة أن يضم المجلس 6 أعضاء موارنة من أصل إثني عشر عضواً[33].

وكانت ردة فعل الأمير بشير الثالث عنيفة على الأعيان فزادت نقمته عليهم وهددهم بالإستيلاء على مقاطعاتهم وإعطائها لأنسبائه في حين رد الأعيان الدروز على ذلك بمحاولة الإتحاد أيضاً مع إخوانهم الأعيان الموارنة من أجل إبعاد بشير الثالث عن سدة الحكم، وقد وافقهم بعضهم وسار الروم الأرثوذوكس في هذا السياق متبنين مجيئ الأمير سلمان يشجعهم على ذلك قنصل فرنسا الذي استاء من سياسة الأمير بشير المرتمية في أحضان العملاء الإنكليز لكن البطريرك أفشل هذا الإتجاه بحجة أن الأمير

30– غنام : سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ص 165ص166.

31 – رعد: لبنان من الإمارة إلى المتصرفية 1840–1861 عهد القائمقاميتين، ص 64.

32 – قاضي من قضاة الشرع الإسلامي في ظل الحكم العثماني ، درس في المدرسة السلطانية في طرابلس وصار يعرف بالفقيه بشارة. عوض، وليد: سياسة الفقيه، جريدة الشرق الأوسط، العدد11424.

33 – الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص 82.

سلمان على الدين الإسلامي، ومال إلى إبقاء الأمير الحالي حتى يصبح الجو مناسباً لعودة الأمير بشير الشهابي الثاني.

فما كان من الأعيان الدروز إلا أن وجهوا عريضة إلى الباب العالي اتهموا فيها كل من الأمير بشير الثاني وبشير الثالث باعتناق النصرانية واضطهاد الدروز والعمل على تنصيرهم بعد أن أبدوا تمسكهم بالإسلام، وخضوعهم لحكومة الباب العالي، وطالبوا بتعيين حاكم درزي عليهم كمان كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط[34].

على إثر هذه الأحداث أخذت الأمور تزداد تعقيداً، وبدأت الأحقاد والضغائن وبذور الإنتقام تترسخ أكثر فأكثر في نفوس أهل الجبل، وفي الوقت ذاته بدأ العثمانيون يشعرون أن نظام الإمارة أصبح على حافة السقوط، وأن لبنان سيصبح بين لحظة وأخرى تحت حكمهم المباشر، وخاصة بعد أن أعلن الدروز معارضتهم له وقرروا القضاء عليه، بالإضافة إلى تمسك البطريرك الماروني حبيش كما ذكرنا ببشير الثالث تمهيداً لعودة بشير الثاني أدى لزيادة الهوة بين الطوائف من سكان الجبل، هذه الهوة التي بدأت تتكون وتتضح عندما وقف الموارنة إلى جانب التحالف المصري الشهابي ضد دروز حوران، بالإضافة إلى الثراء الذي حققه بعض رجال الإقطاع الموارنة في عهد بشير الثاني على حساب الدروز[35].

وقد لعبت السلطنة والدول الأوروبية دوراً بارزاً في إذكار نار الفتنة والتصادم بين هاتين الطائفتين، مما يخدم السياسة العثمانية وأهدافها والتي تجسدت بعبارة قالها والي الشام أحمد باشا(في سوريا ولبنان آفتان هما المسيحيون والدروز، فكلما ذبح أحدهما الآخر استفاد الباب العالي)، ولكن فرنسا التي كانت على علاقة دائمة بالبطريرك الماروني من خلال دبلوماسيتها ومبشريها وعملائها قدمت للصرح البطريركي آنذاك مساعدة بقيمة نصف مليون فرنك، فصار الموارنة يفاخرون علناً بهذه المساعدة ويلوحون بالقضاء على الدروز، هذا ما أدى لحذر الدروز منهم وبذل جهدهم لاستعادة نفوذهم وسلطتهم.

---

[34]– غنام : سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ، ص 166–168.

[35] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ، ص 167.

هذه التطورات والأحداث المتتالية في الجبل قادت الناس إلى الإعتقاد بأن الحرب لابد قائمة في الجبل وأن ساعة الصفر قريبة جداً[36] ،حيث أن قناصل الدول الأوروبية أخذت ترسل ل حكوماتها برقيات تتضمن شرحاً عن تطورات الأوضاع في الجبل وخطورتها فأخذت الدول الأوروبية ترسل بدورها رسائل للسلطنة العثمانية تخبرها بذلك وبأن الوضع في الجبل متجه نحو حرب طائفية حيث أن أ أصبحت مهيأة لذلك. فما كان من الدولة العثمانية إلا أن أرسلت هذه الرسائل لولاتها المختصين والذين قاموا بإرسال تقارير كاذبة للسلطنة عن الوضع في الجبل وأن الأهالي شاكرين لله على تخليصهم من الحكومة الدولة المصرية وأنهم راضون وفرحون في ظل الدولة العثمانية. ولكن قنصل إنكلترا لم يرض عن هذه التطمينات والتوضيحات وذكر في تقاريره أن سبب ما يحدث في الجبل من فتنة وتمزق بين الموارنة والدروز يعود للعمال والولاة العثمانيين الجاهدين في إذكائها[37].

وبالتالي فإن الدول الأوروبية والسلطنة العثمانية بدورها أيضاً الراغبة في استمرار الوضع كذلك كانوا السبب في تحويل الصراع الداخلي ذو الطابع الاجتماعي إلى حرب دينية بين الموارنة والدروز. بدا ذلك واضحاً عندما عبر قنصل بريطانيا عن ذلك في تقرير له بقوله (أن الموارنة مستسلمون نفساً وجسداً لفرنسا فلم يبق لإنكترا أن تختار في الأمر بل أمسى من المحتم عليها معاضدة الدروز) فارتسمت ملامح الصراع الأوروبي على أرض الجبل عبر الطوائف المتناحرة المتنافسة على السيطرة والنفوذ لتضمن وجودها. في الوقت الذي عكس ذلك ارتياحاً لدى لدولة العثمانية لأن ذلك سيكون مقدمة لزعزعة كيان الجبل والقضاء عليه[38].

---

[36] – تشرشل: بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من 1840 إلى 1860، ص 28ص29.

[37] رعد ، مارون: لبنان من الإمارة إلى المتصرفية 1840–1861 عهد القائمقاميتين ، دار نصير عبود ، بيروت–لبنان، ط1، 1993، ص 65–69.

[38]–ياغي، إسماعيل ياغي: تاريخ العالم العربي المعاصر، ص 143.

الحرب الأهلية الأولى(1841):

مقدمات الحرب:

تصاعدت حدة الأوضاع في الجبل نتيجة كل ما ذكرنا خلال صيف 1841 من خلال ما فُرض على الجبل من أموال أميرية إلى تأليف الديوان ورفض الدروز لفكرته من الأساس، وعلى منشور البطريرك ورد الدروز عليه[39]، كل هذا أدى إلى تأزم الوضع وفوضى واضطرابات في الجبل رافقه تجمعات أهلية بين النصارى قامت على أساس طائفي من خلال رغبة البطريرك في توحيد المسيحيين على قاعدة العداوة مع الدروز، وتحديداً علاقة المقاطعجيين الدروز بفلاحيهم الموارنة. وكانت مساعي البطريرك قد لاقت نجاحاً كبيراً. حيث أن أهالي دير القمر رفضوا أوامر مشايخهم والفلاحون وقفوا بوجه أسيادهم المقاطعجيين وكل هذه الأمور كانت لرغبة البطريرك في نشر سيادته في الجبال ولو كلفه ذلك إثارة حرب أهلية[40].

أيضاً جاءت محاولات الأمير بشير الشهابي الثالث لعقد اجتماع للمقاطعجيين النصارى لتوحيد مواقفهم وتنسيقها مع طروحات الكنيسة لتبوء بالإخفاق لتعارضها مع امتيازاتهم المقاطعجية، وكان هؤلاء النصارى يدركون مصلحتهم الحقيقة وهي إلى جانب أقرانهم الدروز إلا أنهم وقفوا ظاهرياً على الحياد بسبب ما ذكرنا سابقاً.

رافق هذا الوضع المتأزم رفض الفلاحين دفع الريع المقاطعجي وخصوصاً في منطقة جزين إحدى إقطاعات المشايخ الجنبلاطية[41]، وكان من الممكن أن يكون أقل خلاف بين الطرفين سبباً في اندلاع الحرب، وجاء إعلان الأمير بشير الشهابي الثالث إقفال مدارس البروتستانت في القرى الدرزية ليزيد حدة المواقف، عند ذلك ذهب نعمان جنبلاط بنفسه إلى البطريرك راجياً أن يتم إلغاء هذا الإجراء لما لهذه المدارس من دور في تدريس الأولاد ولكن البطريرك لم يوافق على ذلك وكان قد صادف وجود نعمان هناك وجود مطران بيروت طوبيا عون الذي أسمعه كلاماً قاسياً بأن الموارنة سيطردون الدروز

---

[39] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ص 164–166.

[40] – الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ، ص79.

[41] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ص 165.

من الجبل عاجلاً أم آجلاً. ومما زاد الوضع سوءاً إقدام السلطنة العثمانية على نشر مشروعها لإقامة مجالس محلية للفصل في النزاعات، فأمر سليم باشا سنة 1841 بإنشاء مجلس في جبل لبنان فوافق المسيحيون على المشاركة في الديوان في حين رفضه الدروز وطالبوا الباب العالي بعزل بشير الثالث وتعيين أحد أمرائهم حاكماً على الجبل أو أن يرسل والياً تركياً عليهم من الأستانة[42].

في هذه الأجواء المتوترة كانت قد وقعت حادثة بعقلين[43]– دير القمر، وانطلقت شرارة التفجير الأولى في 14 أيلول 1841. لسبب بسيط جداً، ذلك أن رجلاً من دير القمر يدعى يوسف صالح أفرام قد اصطاد حجلاً في بعقلين في ملك الشيخ ناصيف أبو نكد، فانهال عليه الحراس إهانة وضرباً وتعذيباً. وعندما عاد إلى بلدته وأخبر أهله بما حصل انتشر الخبر بسرعة وصار يتفاعل سلباً. وهاج الرأي العام مطالباً بأخذ الثأر وتحمس حوالي ستين شاباً من البلدة وحملوا السلاح وهاجموا بعقلين وبعض القرى الدرزية المجاورة، وحدثت معركة كبيرة سقط فيها عدد كبير من الضحايا من الطرفين[44]،

فوجدت الدولة العثمانية في ذلك فرصة ذهبية لتحقيق أهدافها فكانت تؤيد الدروز تارة وتتخذ موقفاً محايداً تارة أخرى وذلك لأن مصلحتها تقتضي ببقاء الوضع بين الطائفتين متأزم إلا أن قنصل إنكلترا الكولونيل روز والذي كان في ضيافة الزعماء النكديين في دير القمر هب على الفور لتهدئة الوضع بالتعاون مع المشايخ الدروز للحد من هذه الفتنة بالإضافة إلى دور البطريرك الماروني الذي لعب دوراً في إيجاد نوع من المصالحة بين الدروز والموارنة حيث أنه بادر إلى ارسال بعض المشايخ الخوازنة

---

[42]– صايغ ، أنيس: لبنان الطائفي ، دار الصراع الفكري ، بيروت–لبنان، 1955، ص 113.

[43] – بلدة لبنانية في قضاء الشوف في جبل لبنان، تقع وسط الواجهة الجنوبية لسلسلة جبال لبنان الغربية وترتفع عن سطح البحر بين 850و900 متر. تبعد عن العاصمة بيروت مسافة 45كم ويبلغ عدد سكانها عشرون ألفاً، وتتكون طبيعتها الجغرافية من مجموعة تلال مشرفة على ساحل الشوف(الدامور–خلدة) وعلى المدن والبلدات المجاورة مثل دير القمر وبيت الدين شمالاً وإقليم الخروب جنوبا. .m marefa.org تاريخ التحميل 23 أيلول 2022 الساعة 7:45 مساءً.

[44] – الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص 81.

والحبيشية والدحادحة لاجراء الصلح أيضا كتب الى الشيخ نعمان جنبلاط وللامير الحاكم والشيخين ناصيف وحمود النكديين يلتمس منهم عقد الصلح بين الفريقين[45]

تحققت المصالحة ولكن ظاهرياً حيث بقيت الأحقاد قائمة بينهما وكل منهما يضمر الحقد للطرف الآخر وينتظر الفرصة المناسبة للإنتقام حيث كان السلاح منتشراً بين الأهالي من دروز ونصارى بشكل واسع وعلى حد سواء منذ سنة 1840 وبالرغم من توافر السلاح فأن المصادر التاريخية تتكلم عن كميات من الأسلحة تلقاها الدروز والنصارى على حد سواء وكان مصدرها السلطات العثمانية [46]

هذا ما دفع قناصل الدول الأوروبية إلى الإحتجاج واخبار سليم باشا بذلك مؤكدين إرسال بعض الذخائر بدلاً من التوسط الفعلي بين الفريقين وحتى أن بريطانيا نفسها اتهمت بتوزيع البارود والذخائر على الطائفة الدرزية هذا ما حمل الكولونيل روز على نفي هذه التهمة عن دولته بموجب مذكرة موجهة إلى سليم باشا مطالباً باتخاذ الذرائع لإبطال هذه الإشاعات الكاذبة ذات القصد السيء وانزال العقاب الشديد بمروجيها[47].

قيام الحرب:

انتقل بشير الثالث من بعبدة الى دير القمر تنفيذاً لأمر سليم باشا للعمل على تشكيل الديوان والبحث بشأن توزيع الضرائب يرافقه بعض أعضاء الديوان النصارى وقام بدعوة الأعيان الدروز للتباحث معهم بشأن هذا الأمر فأعتبر الدروز أن هذه هي الفرصة الملائمة للانتقام من المسيحيين وحليفهم الأمير بشير الشهابي الثالث حيث انهم لم يأتوا إلى هذا الاجتماع ما أدى إلى تأزم سياسي بين الفريقين صمم الدروز بنتيجته على اسقاط حكم الأمير بشير ويبدو أن العثمانيين كانوا قد تخلو عنه في تلك الأثناء فأنتهز الدروز تلك الفرصة للإيقاع به خاصةً أنه كان حديث عودة الأمير بشير الثاني في اوجها[48].

---

45 – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ص 170.

46 – علي، محمد كرد: خطط الشام ،مكتبة النوري، 1983، دمشق–سوريا، جزء 3، ط3، 1983، 74.

47– مكاريوس ، شاهين: حسر اللثام عن نكبات الشام، دون نشر ، مصر ، 1895، ص 79–82.

48 – رعد: لبنان من الإمارة إلى المتصرفية 1840–1861 عهد القائمقاميتين، ص 69 ص70.

استغل الدروز فرصة انعقاد اجتماع عام للأعيان المقاطعجيين والأمير بشير للبحث في التوزيعات الضريبية ، للتخلص منه . لكن الأمير تلقى تنبيهاً بنوايا الدروز تجاهه ، فآثر عقد الاجتماع داخل دير القمر ، إلا أن أعيان الدروز حاصروه في سراي دير القمر الذي كان قد تحصن به.

بدأت الأعمال العسكرية في 13 تشرين الأول سنة 1841 بقيادة (قواد) زعماء الدروز، وهم الأمير حسن أرسلان ، والمشايخ خطار العماد، وناصيف أبو نكد، ومحمود العيد عندما حاصروا الأمير الحاكم في سراي دير القمر ، بعد أن تحصن فيها . وقد استمر القتال مدة ثلاثة أيام وقف خلالها سكان دير القمر النصارى إلى جانب الأمير بشير يدافعون عنه [49].

وقد أدت هذه الحرب إلى مقتل العشرات من الفريقين واحتراق الأسواق . وقد شاركت جماعة بشير الثالث في القتال ، لكنها ما لبثت أن تراجعت نحو السراي بناء على طلب الأمير، وبعد مقتل اثنين منها[50] . وحاول الأمير بشير طوال هذه الفترة الاستنجاد بالبطريرك، فأرسل خمسة عشر رسولاً إليه وإلى نصارى المناطق الشمالية وزحلة يطلب منهم التدخل السريع وفك الحصار عنه. لكن اياً من هؤلاء لم يصل باستثناء واحد منهم، وكانت ردة فعل البطريرك عنيفة . فأقسم على أخذ الثأر (وكان مريضاً فأبى إلا أن يقوم لمحاربة الدروز على أكتاف الرجال) وأغلق الكنائس ، وأرسل مبعوثين يدعون النصارى إلى الحرب. وكان المبعوثون(اثنان منهم من الرهبان يحملان الصلبان) يطوفون على قرى الموارنة ومدنهم مهددين كل من لا يحمل السلاح بالحرمان. فلبى النصارى الطلب وذهبوا لإحراق قرى الدروز، فكان أن توسعت حلبة الحرب الأهلية لتشمل ليس فقط دير القمر وجوارها وإنما سائر المناطق المختلطة من جبل لبنان[51]

---

[49]– غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ،ص 172–174.

[50] – مكاريوس: حسر اللثام عن نكبات الشام، ص 87.

[51]– نسكايا ، سيميليا : الحركات الفلاحية في لبنان النصف الأول من القرن التاسع عشر ، تعريب عدنان جاموس ، دار الفارابي ، بيروت–لبنان ، 1972، ص 140–145.

كان هدف الدروز من الحرب إسقاط حكم بشير الثالث كمقدمة للتخلص من حكم الأمراء الشهابيين جميعاً. وعندما حاصروه في دير القمر لم يكن معهم أي من الأمراء الشهابيين كشخص بديل عن الأمير الحاكم ، وهذا له عرفه ودلالته في الحياة السياسية . ثم إن محاصرة الأمير في سراي دير القمر لم تكن موجهة ضد السكان المسيحيين، ولو كان الأمر كذلك لكان الدروز هاجموها قبل دخول بشير الثالث إليها، أو بعد خروجه منها . وهذا ما يفسر توجههم نحوه بالذات في عملية الثأر منه اولاً واسقاطه ثانياً . وقد تنبه الأهالي لخطورة وجود بشير بينهم وكانوا قلقين على مصيرهم ، لذلك اقترحوا على نقل اجتماع الأعيان إلى خارج دير القمر[52].

ومما يؤكد صحة هذا الرأي أن الدروز الذين توافدوا إلى دير القمر وكمنوا في منازل أبناء ملتهم، حسبما ذكرت المصادر التاريخية . كان الهدف منه ليس النيل من سكان دير القمر النصارى وإنما إقامة التوازن السكاني بين نصارى المدينة ودروزها ، وتحسبا لحدوث طارئ مفاجئ. إذ أن سكان البلدة كانوا آنذاك نحو 500 درزي يقابلهم 3000 مسيحي. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد عبأوا قواهم للظهور بمظهر القوة الضاغطة على الأمير عند انعقاد المجلس . وعندما جاء نقل الاجتماع من دير القمر إلى سوق العين الواقعة على مسافة نصف ساعة من البلدة رفض الدروز المشاركة في الاجتماع . وقد بدأت أعمال العنف واستفحل امرها بين الدروز والموارنة إثر مقتل أحد الدروز الوافدين الى دير القمر بعد محاولة انتزاع البندقية منه[53].

تحصن بشير الثالث بأهالي دير القمر واعتمد عليهم فحموه و آزروه ، ودفعوا المهاجمين عنه بجرأة وعناد. وقد ادرك النكديون وهم زعماء دير القمر وأصحاب عهدتها منذ زمن بعيد، كونها مركز حكمهم وقاعدة نفوذهم ، خطورة الأعمال العسكرية الجارية في مدينتهم، وكانوا قد التزموا موقف الحياد بين الفريقين منذ حادثة دير القمر – بعقلين .[54]

---

52 – تشرشل: بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من 1840 إلى 1860، ص 32 ص 33.

53 – الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص 82–85.

54 – بازيلي: سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص 315–320.

غير أن استمرار بشير الثالث في سياسته الرامية إلى تحطيم النفوذ المقاطعجي في الجبل خصوصاً في دير القمر بالذات، من خلال استمرار تأييده لمحافظ دير القمر الشيخ يوسف عيد الخازن ، دفعهم إلى التزام موقف الفريق العامل (على الإيقاع بالأمير بشير الثالث نفسه لأنه كان النافخ في بوق الفتنة) . وكان مأزق الأعيان النكديين كبيراً ، فانقسموا إلى فريقين ، احدهما بزعامة الشيخ ناصيف ، ويؤيد سياسته الداعية إلى حل الأمور بالوسيلة العسكرية عبر تنظيم الصدامات الدموية بين الدروز والموارنة بغية قهر التيار المسيحي المتطرف وإخضاعه ، مؤكداً صحة هذا التوجه، بما كانت تقوم به بعض الجماعات المسيحية المتطرفة حيث كانت تقطع الطرق و تفتك بالمارين، والأخر بزعامة الشيخ حمود ويتبنى سياسة متسامحة تجاه نصارى دير القمر لإدراكه خطورة ما كان يجري في بلدته. وقد وقف بوجهه نسيبه ناصيف وخفف من غلوائه واندفاعه عبر مخاطبته (أتخرب بيتك بيدك)[55].

لكن الغلبة في النتيجة كانت للتطرف و تغلب تيار الشيخ ناصيف على الشيخ حمود. وانساق الجميع في تيار العنف والعنف المضاد . وقد أصيب الشيخ ناصيف بولده عباس فقتل في بداية الأحداث على يد أحد الديارنة الذين كانوا في خدمته.

ويبدو أن الأعيان الدروز كانوا يريدون حصر العمليات الحربية في دير القمر وجوارها. وكانوا قد استعدوا مسبقاً لهذه الغاية فقطعوا الطرقات وسائر الممرات الجبلية المؤدية إلى المدينة. لكن الأمور سرعان ما خرجت من أيديهم بفعل إجراءات البطريرك الماروني ودعوته لمساعدة الأمير بشير دير القمر . وأصبح النهوض عاماً ضد الدروز، فكان أن عمت أعمال العنف مختلف المناطق والمقاطعات المختلطة[56].وخصوصاً بعبدا فقد تحولت إلى معسكرات تجمع فيها النصارى المندفعون إلى القتال تنفيذاً لنداءات البطريرك. ففي بعبدا تجمع أكثر من سبعة آلاف مقاتل ، في حين بلغ عددهم في مراجع أخرى خمسة عشر ألف مقاتل ، يقودهم الأمير ملحم شهاب، ويرمي إلى فك الحصار عن بشر الثالث، وإنقاذ دير القمر. وقد اختيرت بعبدا لقربها من مكان الأحداث ولإمكانية تجمع

[55]– غنام : سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ، ص 174ص175.

[56] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ص 176–178.

المسيحيين فيها بسهولة. لكن العقبة الأساسية كانت في وصول المقاتلين إلى دير القمر، دون المرور في القرى الدرزية، فاختاروا سلوك طريق الساحل وصولاً إلى الدامور دون التعرض لبلدة الشويفات بعد أن تضامن سكانها الدروز والنصارى وتعاهدوا على الصلح وعدم الحرب[57].

لقد جرت عدة مواقع في الشويفات وبعبدا وجزين، وخصوصاً في زحلة التي حاصروها الدروز بقيادة شبلي آغا العريان[58] في خريف سنة 1841 . وقد تمكن الزحليون من رد هجمات الدروز عليها بمساعدة الأمير خنجر الحرفوشي[59] وشيعة البقاع، وأدت هذه الوقائع إلى مقتل وجرح المئات من السكان، وحرق عشرات القرى، واتلاف المحاصيل والمنتجات، وقد غلب على هذه المعارك الكر والفر، والإقبال والإدبار[60].

أما في بعبدا فقد تجمعت القوات الوافدة من كسروان وأقصى الشمال والتي كان قد قدم لها البطريرك النفقات والمؤن والبارود والرصاص من أموال الكنيسة وكانت بقيادة الأمراء الشهابيين ولاسيما الأمير بشير ملحم الذي وجد أن الفرصة مواتية للتخلص من الأمير بشير الثالث وأن يستلم مكانه، أما مهمة المسيحيين في بعبدا فتمثلت بفك الطوق عن الأمير بشير الثالث في دير القمر بالإضافة إلى تخليص المدينة من السيطرة الدرزية. أما

---

[57] – المعلوف، عيسى إسكندر: مدينة زحلة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهر–مصر، 2012، ص 156–163.

[58] – أحد كبار القادة الدروز، ولد في بلدة راشيا أواخر القرن الثامن عشر في بين زعامة ووجاهة وقدر، وقف مع فرسانه بوجه جيش إبراهيم باشا المصري والشهابيين الذين دعموهم أثناء حصارهم لجبل الدروز. بالإضافة لوقوفه مع جيشه بوجه عمر باشا النمساوي 1842 بعد أن عُين والياً على الجبل بعد القضاء على الإمارة الشهابية وأثناء حصاره لرجال الدين الدروز. حسون، أكرم: مجلة العمامة، الفئوية والصراع الحزبي الداخلي في الطائفة الدرزية، العدد 57.

[59] – من أمراء الحرافشة الذين تولوا الحكم في بعلبك وشرقي البقاع اللبناني وحكموا ما يقارب من ثلاثة قرون ونصف القرن من عام 1497 حتى 1865. حمادة، سعدون: تاريخ الشيعة في لبنان، دار الخيال، لبنان، ج1، ط2، ص 258.

[60] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ،ص 176–178.

رجال الدين الموارنة وممثلو البطريرك فقد لعبوا دوراً مهماً في التحريض وطاف الأساقفة بالقرى المسيحية وهددوا أهلها بالحرمان إن لم يحملوا السلاح في وجه الدروز[61].

ظهرت توجهات القوى المسيحية في بعبدا حول ثلاث اتجاهات. الإتجاه الأول ساهم في توتير الأوضاع وإبقاء الإضطرابات بهدف إعادة الأمير بشير الثاني إلى سدة الحكم، والإتجاه الثاني كان يؤيد الأمير بشير الثالث وكان البطريرك داعماً ظاهرياً فقط لهذا الإتجاه إلى أن يتم عزله أي للأمير بشير الثالث عن السلطة من قبل السلطنة، والإتجاه الثالث تمثل بالمقاطعجيون الموارنة الذين أدركوا أن انهيار سلطة المشايخ الدروز في المناطق الجنوبية من الإمارة ستؤدي بالتدريج إلى فقدانهم سلطاتهم أيضاً فشاركوا في القتال بصورة شكلية غير فعالة وكانوا على وشك الانسحاب لولا تهديد البطريرك لهم بالحرم[62]. فانقسامات المعسكر الماروني كان من الأسباب الأساسية لهزيمة النصارى العسكري والسياسي أيضاً ف خسارتهم في دير القمر وبعبدا لم تكن بسبب طبيعتهم القتالية فحسب إنما أيضاً كما ذكرنا انقساماتهم السياسية [63].

الدور العثماني في أحداث الجبل والوساطة الإسمية لتهدئة الوضع:

ذكرت العديد من المراجع دور العثمانيين في أحداث الجبل فقد كان هؤلاء يقفون إلى جانب الأعيان الدروز ويساعدونهم في بعض المواقف ويجردون النصارى من السلاح قبل أن يقوم الدروز بمهاجمتهم، حيث أن السر عسكر سليم باشا كان يعلم بهجوم الدروز على دير القمر قبل وقوع ذلك بأربعة عشر يوماً، ولكن ما حدث وعدم تصرفهم الفوري لتفادي جميع ما حصل من مجازر دموية وتهديم البيوت وإحراقها كل هذا كان يتوافق مع مخططاتهم ومشاريعهم التي أرادوا تنفيذها في الجبل[64].

وبناءً على ذلك قررت السلطنة إنهاء حكم الإمارة الشهابية وهذا ما يفسر عدم التدخل في البداية لإنقاذ الأمير المحاصر مدة خمسة وعشرين يوماً إلى أن استنفذه

---

[61] – الصليبي: تاريخ لبنان الحديث،ص83ص84.

[62] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ،ص 181ص182.

[63]–تشرشل: بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من 1840 إلى 1860، ، ص 33..

[64] - الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص84ص85.

الحصار مادياً ومعنوياً من خلال تعرضه للضرب والإهانة على يد بعض الدروز، فعندما أصبح بشير الثالث بأيدي الدروز تدخل العثمانيون بطلب من الدول الأوروبية لتسوية النزاع، فأرسلوا مصطفى باشا أحد كبار ضباط الجيش العثماني إلى بيروت لهذا الغرض، فوصل إليها في منتصف تشرين الثاني[65].

لكن سرعان ما اتضح أن مهمة مصطفى باشا لم تكن للوساطة، وإنما لإقامة الدليل باستحالة المصالحة بين الدروز والنصارى وبالتالي يتحقق أمل العثمانيين بوضع حد لاستقلال لبنان الداخلي وهكذا في حين تظاهر بالوساطة بين الطائفتين المتخاصمتين، سعى في الخفاء لإقناع النصارى بفوائد الحكم العثماني المباشر في الوقت الذي شجع الدروز على الإستمرار في نهب قرى النصارى وإتلافها. وكان الجنود العثمانيون التمركزون في جوار بيروت للحفاظ على الأمن يهاجمون الهاربين من القرى المنكوبة ويسلبونهم ما كانوا يملكون[66]

انتهاء الحرب الأهلية الأولى وعزل الأمير بشير الشهابي الثالث:

استمر حصار الأعيان الدروز لدير القمر مدة خمسة وعشرين يوماً كما ذكرنا نضجت خلالها مشاريع الدولة العثمانية واستقر الأمر بها إلى عزل الأمير بشير الثالث، فأرسل والي صيدا كلاً من أيوب باشا وعبد الفتاح آغا حمادي إلى دير القمر لوقف القتال فيها وإخراج الأمير بشير الثالث، وبعد مفاوضات مع الشيخين النكديين ناصيف وحمود توصلوا لاتفاق على إخراج الأمير بشير وأن يسلم أهالي دير القمر سلاحهم ل مشايخهم النكديين[67].

وعلى إثر ذلك رست باخرة لنقل الأمير بشير الشهابي الثالث للأستانة والذي كان قد أصر على الخروج من دير القمر بأبهة تليق بمكانته فرافقه كوكبة من الحرس الأميري، لكنه ما إن خرج من البلدة حتى انقض على حرسه جماعة من الدروز فجردتهم من السلاح وعمدت إلى التنكيل بالأمير[68].

---

[65] - رعد: لبنان من الإمارة إلى المتصرفية 1840-1861 عهد القائمقاميتين، ص 72 ص73.

[66] - حتي، فيليب، مرجع سابق، ص343.

[67] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ص 183–185.

[68] – رعد: لبنان من الإمارة إلى المتصرفية 1840–1861 عهد القائمقاميتين، ص 72ص73.

وما أن غادر بشير الثالث لبنان حتى دعا مصطفى باشا أعيان البلاد إلى الاجتماع في بيروت في 16 كانون الثاني 1842، ليعلن سقوط الشهابيين، بعد أن أدت هذه الحرب إلى تدمير أكثر من سبعين قرية ومدينتي (زحلة ودير القمر) تدميراً كلياً أو جزئياً، وأحرق ما يقارب 4400 منزل وقُتل من الجانبين نحو 1500 شخص وخسارة مادية قُدرت بنحو نص مليون من الدولارات[69]. وبذلك انتهى عهد الإمارة النصرانية في لبنان إذ عين عمر باشا *[70]المدعو بالنمساوي من حاشية مصطفى باشا حاكماً على الجبل وكان هذا فوزاً باهراً للسياسة العثمانية توفق فيه العثمانيون إلى اختيار الفرصة الملائمة للعمل[71]. ذلك أن وحدة الصف بين الدروز والموارنة بمجيئ 1842 لم تعد في حيز الوجود بل أصبح التعاون فيما بينهم مستحيلاً. ففيما رحب الدروز بالوضع الإداري الجديد ترحيباً بالغاً، رفض النصارى الإعتراف به كإجراء دائم وأصروا على إعادة الإمارة، على أن هذا المطلب لم يكن ممكناً إلا برضى الدروز ومعونتهم، حيث أنهم لم يدركوا أن الضربة التي نزلت بنصارى البلاد من جراء زوال إمارتهم وإقامة الحكم العثماني المباشر ستسيئ إليهم أيضاً في نهاية الأمر[72].

---

[69] – غنام: سعيد بك جنبلاط(1813–1861)، ص184.

*[70] – كان عمر باشا من أصل مسيحي، ثم أسلم، ولد في منطقة كرواتيا من بلاد البلقان وليس في النمسا عام 1806 وكان اسمه الأصلي ميخائيل لاتاس. الصليبي ، كمال سليمان ، مرجع سابق ، ص 86.

[71] – JOUPLAIN,P.N, 1961– La question du liban, 2eme edition , Paris,p 260.

[72] – الدمشقي ، ميخائيل: تاريخ حوادث الشام ولبنان (1782–1841)، تح أحمد غسان سبانو ، دار قتيبة ، دمشق–سوريا، 1981، ص 154

الخاتمة:

واعتماداً على ما ذُكر في هذا البحث ومن خلال تتبع أحداث جبل لبنان بين عامي 1840 –1842 يُلاحظ أنها فترة مليئة بالأحداث السياسية والإجتماعية قلبت موازين القوى في كثير من الأحيان اشتركت فيها أيادٍ مختلفة ولعبت العديد من الجهات دوراً كبيراً وكانت سبباً أساسياً لما حدث. بالإضافة للأرضية الهزيلة لسكان الجبل وتعصبهم لديانتهم ومعتقداتهم، وهذا ما كان نقطة الضعف التي استغلها كل من له مصلحة بتغيير أوضاع الجبل .

على إثر ذلك يمكن القول أن فترة حكم الأمير بشير الشهابي الثالث كانت مرحلة انتقالية في تاريخ جبل لبنان ونقطة فاصلةً وتحولاً جذرياً في نظام الحكم أيضاً، فكان الحكم قبل وأثناء حكمه أُسري محلي من ثمّ تم تعيين والٍ عثماني ممثِلاً بذلك بداية الحكم العثماني المباشر على الجبل. ولهذا يمكن اعتبار فترة حكم الأمير بشير الثالث فترة مهمة جداً وتستحق الدراسة فاستطعنا من خلال هذا البحث تتبع السياسة العثمانية في الجبل ومحاولتها الدائمة لجعل الأمور تحت إدارتها المباشرة، هي إذاً مرحلة غيّرت مستقبل جبل لبنان وأصبح أهله محكومين لا حاكمين بالإضافة إلى أنها تبدلٌ خطير كان له اعتبارات كبيرة على سكان الجبل الذين لم يعوا مخاطر الحكم العثماني المباشر.

لابد بالإضافة إلى ذلك من إعطاء الأهمية الكبرى للدور الذي لعبته المصالح الشخصية والاعتبارات الأخرى التي اتخذها سكان الجبل فكان هذا الدور بالإضافة لعوامل أخرى كسياسة الأمراء أحد أهم الأسباب إن لم نقل السبب الرئيسي في نهاية الإمارة الشهابية.

قائمة المصادر:

1. أبكاريوس، إسكندر :نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تحقيق عبد الكريم إبراهيم السمك، دار رياض نجيب الريس، لندن، 1987.
2. بازيلي، قسطنطين: سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق مصراني، دار التقدم، موسكو روسيا، 1989.
3. الدمشقي، ميخائيل: تاريخ حوادث الشام ولبنان(1782–1841)، تحقيق أحمد غسان سيانو، دار قتيبة، دمشق–سوريا، 1981.
4. الشدياق، طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت–لبنان، 1970، ج2.
5. أبو شقرا، يوسف خطار: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، تحقيق عارف أبو شقرا، د. ن، 1952.
6. فريد بك، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د إحسان حقي، دار النفائس، بيروت–لبنان، ط1، 1981.
7. مكاريوس، شاهين: حسر اللثام عن نكبات الشام، د. ن، مصر، 1895.

المراجع العربية:

1. حمادة، سعدون: تاريخ الشيعة في لبنان، دار الخيال، لبنان، ج1، ط2.
2. رستم، أحمد: بشير بين السلطان والعزيز(1804-1841)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت-لبنان، 1966.
3. رعد، مارون: لبنان من الإمارة إلى المتصرفية 1840-1861 عهد القائمقاميتين، ط1، دار نظير عبود، بيروت-لبنان، 1993.
4. زكّار، سهيل: تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر، التكوين للدراسات والترجمة والنشر، دمشق-سوريا، 2006.
5. الزيدي، مفيد:العصر العثماني، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2009.
6. صايغ، أنيس: لبنان الطائفي، دار الصراع الفكري، بيروت-لبنان، 1955.
7. الصليبي، كمال سليمان: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت-لبنان، ط7 ،1999.
8. غنام، رياض: المقاطعات اللبنانية في ظل الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين 1789-1861، بيسان للنشر والتوزيع- بيروت لبنان، ط1، 1998.
9. غنام، رياض: سعيد بك جنبلاط(1813-1861)، دار معن، بيروت-لبنان، ط1، 2014.
10. كرد علي، محمد: خطط الشام، ط3، مكتبة النوري، دمشق-سوريا، جزء3، 1983.

11. مصطفى، نادية محمود: العصر العثماني من القوة و الهيمنة إلى المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة–مصر، 1996،

12. معلوف، عيسى إسكندر: مدينة زحلة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة–مصر،2012.

13. نسكايا، سيميليا: الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، تعريب عدنان جاموس، دار الفارابي، بيروت لبنان، 1972

14. ياغي، إسماعيل أحمد: تاريخ العالم العربي المعاصر ، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2000

المراجع المترجمة:

1. تشرشل، تشارلز: بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من 1840إلى 1860، ترجمة فندي شعار، دار المروج، بيروت–لبنان، 1984.

2. حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د جورج حداد، دار الثقافة، بيروت–لبنان، ج1.

المراجع الأجنبية:

1- ISMAILE, A, 1958- Histoire du Libanon (1840-1861), Beyrouth.

2- JOUPLAIN,P.N, 1961- La question du liban, 2eme edition , Paris,.

مواقع إلكتروني:

1- m. marefa.org

2- https://arabyy.com

3- https/www.alhayat.com

الدوريات(مقالات-مجلات- دراسات):

1. حسون، أكرم: مجلة العمامة، الفئوية والصراع الحزبي الداخلي في الطائفة الدرزية، العدد 57.
2. عوض، وليد: جريدة الشرق الأوسط، سياسة الفقيه، العدد11424.

المعاجم:

1. الزركلي، خير الدين: الأعلام،، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، جزء 2، ط15، 2002.
2. يُنظر حلاق، حسان و صباغ، عباس: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية(المصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية والعائلية)، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان،ط1، 1999.
3. نجار، زكريا: قاموس لبنان، دار الساقي، بيروت-لبنان، 2018.